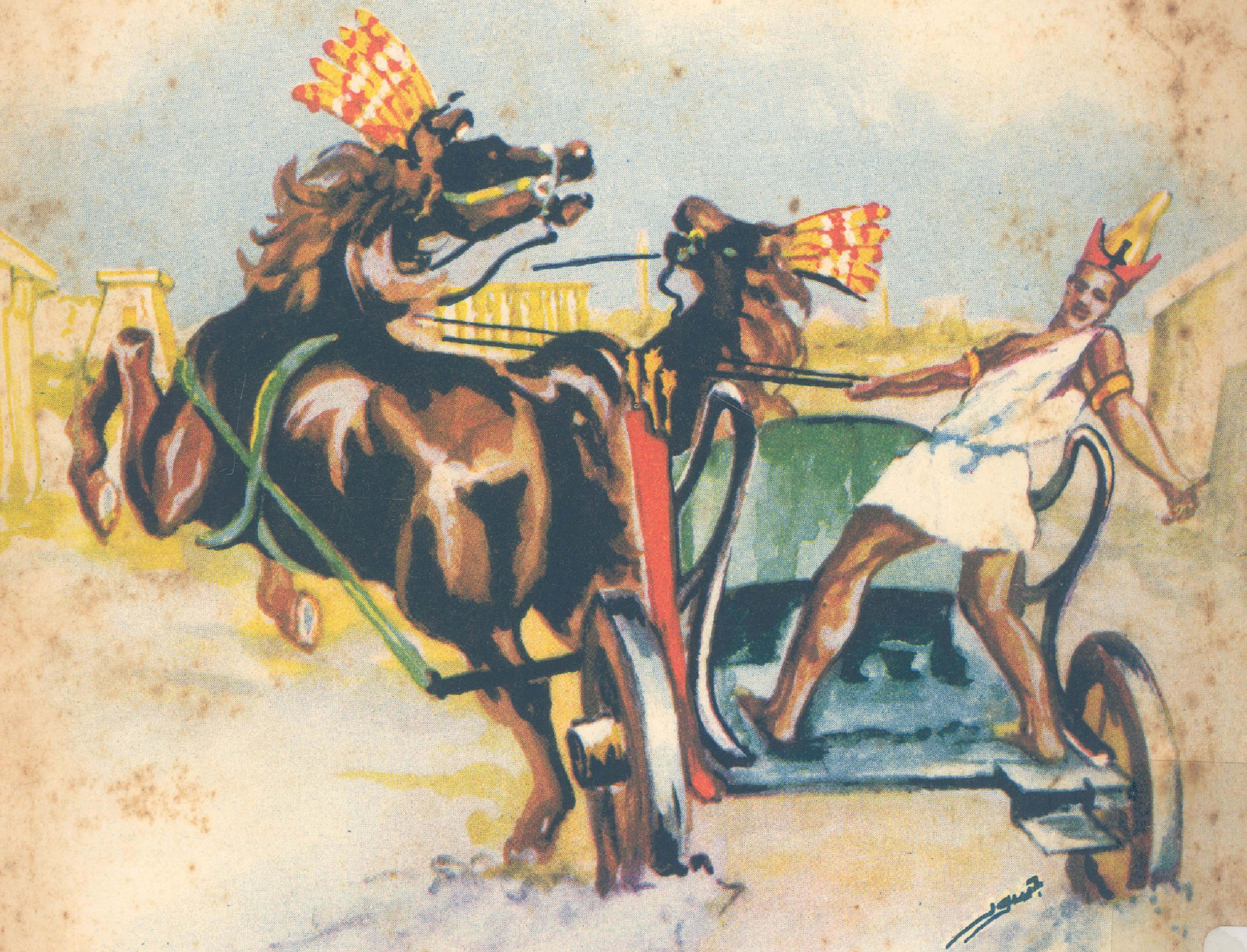
مطبوعات
مكتبة مصر



# كفاح طيبة

بنجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر

# كفاح طيبة

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

# فهرست الشخوص

| | |
|---|---|
| سيكننرع | ملك طيبة |
| سينكننرع | والد سيكننرع |
| كاموس | ابن » |
| احمس | ابن كاموس |
| توتشيرى | والدة سيكننرع |
| احونبى | زوج » |
| ستكيموس | زوج كاموس |
| نيفرتارى | زوح أحمس |
| امنحتب | ولى عهد أحمس |
| حور | رئيس حجاب سيكننرع |
| اوسر آمون | رئيس وزراء سيكننرع |
| نوفر آمون | كاهن آمون |
| كاف | قائد أسطول طيبة |
| بيبى | قائد جيش طيبة |
| ابانا | زوج بيبى |
| احمس | ابن بيبى وابانا |
| رؤوم | حاكم النوبة المصرى |
| محب | قائد من قواد احمس |
| ديب | » » » » |
| راى | وصيفة نيفرتارى |
| اسفينيس | اسم مستعار لأحمس فى تنكره |
| لاتو | » » لحور » » |
| زولو | القزم |
| أبوفيس | ملك الهكسوس |
| أمنريدس | ابنة ابو فيس |
| خيان | كبير حجاب ابو فيس |
| خنزر | قائد جيش الهكسوس |
| سنموت | قاضى من الهكسوس |
| رخ | قائد من الرعاة |

# سيكننرع

## ١

كانت السفينة تصعد فى النهر المقدس ، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة ، يحتث بعضها بعضا منذ القدم كأنها حادثات الدهر فى قافلة الزمان ، بين شاطئين انتثرت على أديميهما القرى ، وانطلق النخيل جماعات ووحدانا ، وتراءت الخضرة شرقا وغربا ، وكانت الشمس تعتلى كبد السماء وترسل أسلاكا من النور اذا غمر النبت رف رفيفا ، واذا مس الماء تلألأ لألاء ، وقد خلا سطح الماء الا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس — رمز الشمال — بعين التساؤل والانكار .

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة ، مستدير الوجه ، طويل اللحية ، أبيض البشرة ، يرتدى معطفا فضفاضا ويقبض بيمناه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبى ، جلس بين يديه رجلان فى مثل بدانته وزيه ، تدانى بينهم جميعا روح واحدة ، وكان السيد يطيل النظر الى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقى على من يصادفه من الصيادين نظرة شزراء ، وكأنه برم بالصمت فتحول الى رجليه وتساءل قائلا :

— ترى هل ينفخ غدا فى الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب ، وتفزع هذه الدور المطمئنة ، ويحلق نسر الحرب فى هذا الجو الآمن ؟... آه ... ليت هؤلاء الرجال يعلمون أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم ...

فهز الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما :

ـ لتكن حرب أيهــا الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى الا أن يضع على رأسه تاجا كالملوك ويبنى القصور كالفراعين ، ويسير فى طيبة مرحا لا يبــالى شـــيئا .

فجعل الحاجب يصرف بأنيابه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدل على الحنق والغيظ وقال :

ـ لا يوجد حاكم مصرى ســوى حاكم اقليم طيبــة هذا ، فاذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر الى الأبد ، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه ..

وقال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا ييئس أبدا من أن يصير يوما حاكما لمدينة عظيمة :

ـ ان هؤلاء المصريين يكرهوننا ..

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة :

ـ نعم ... نعم ... وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية ... لقد نفدت الحيــل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف ...

فابتسم الرجلان أول مرة ، وقال ثانيهما أيضا :

ـ بورك رأيك أيها الحاجب الحكيم ، فان السوط وسيلة التفاهم التى لا تجدى سواها مع المصريين ...

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة ، فما يســمع الا وقع المجاذيف على سطح الماء ، ثم لاحت من أحدهم التفاتة الى زورق صيد يقف فى وسطه فتى مفتول الســاعدين ، عارى الجســد الا من وزرة تغطى وسطه ، وقد لفحت الشمس بشرته ، فقال بتعجب :

ـ كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم ...

فقال الحاجب بسخرية :

ـ لا تعجب فان من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون ...

ـ حقا ... ان لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى ...

قال الحاجب :

ـ حدثنى بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال انهم على لونهم وعريهم ذوو صلف وكبرياء ، وانهم يزعمــون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة ، وان بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين .. رباه .. انى أعرف الدواء لــكل هذا .. لا ينقص الا أن تمتد ذراعنا الى حدود بلادهم ..

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول ، وهو يشير بأصبعه الى الشرق :

ـ انظر .. أترى ؟ هذه طيبة ! ..

فنظروا جميعا الى حيث يشير الرجل ، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم ، بدت خلفه رءوس المســلات عالية كأنها عمد ترفع القبــة السماوية ، ورئيت فى ناحيتها الشماليــة جدران معبد آمون الشاهقة ، رب الجنوب المعبود . فما وقعت العين فيهــا الا على مارد عظيم يتعــالى الى السماء ، فأخــذ الرجال ، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلا :

ـ نعم .. هذه طيبة .. وقد أتيحت لى رؤيتها من قبل . وما أزداد على الأيام الا رغبة فى أن تعنو الهام لمولانا الملك ، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها ..

فقال أحد الرجلين :

ـ وأن يعبد بها ربنا ست المعبود ..

وخففت السفينة من سرعتها ، ومضت تدنو من الشاطىء رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن ، التى تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس ، وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم ، أما غربى الشاطىء الآخر ، فتجثم مدينة الأبدية ، حيث يرقد الخالدون فى الأهرام والمصاطب والمقابر ، تغشاهم جميعا وحشة الموت ..

وتوجهت السفينة الى ميناء طيبة ، تشق سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجارية ، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها ، وصورة اللوتس التى تزين مقدمها ، حتى حاذت الرصيف ، فألقت كلابها الضخم ، وقصد اليها بعض الحراس ، وانتقل اليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض . وسأل أحد رجالها قائلا :

— من أين انحدرت هذه السفينة ؟ .. وهل تحملون تجارة ؟ ..

فحياه الرجل ، وقال « اتبعنى » واصطحبه الى المقصورة ، حيث أدرك الضابط أنه ماثل بين يدى حاجب كبير من حجاب قصر الشمال ، قصر ملك الرعاة كما يدعونه فى الجنوب ؛ فانحنى احتراما وأدى التحية العسكرية . ورفع الحاجب يده ليرد التحية فى صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية :

— أنا رسول فرعون ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الرب ست ، مولانا أبوفيس ، الى حاكم طيبة الأمير سيكننرع ، فأرجو أن تبلغ سيدك أنى أنتظر دعوتى الى مقابلته لأؤدى اليه ما حملته من البلاغ .

وأصغى الضابط الى الرسول فى انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى .

## ٢

ومضت ساعة من الزمان ، ثم جاء السفينة رجل وقور ، يميل الى القصر بادى النحافة ، بارز الجبهة ، فانحنى انحناءة وقورا للرسول ، وقال بصوت رقيق هادىء النبرات :

— ان الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب . .

فحنى الرجل رأسه الضخم وقال بصوته الغليظ :

ــ وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى .

فقال حور :

ــ يسر مولاى أن يستقبلك فى الحال .

فأبدى الرسول حركة وقال : « هلم بنـا » وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير فى خطا وئيدة ، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان اجلالا ، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق : « أما كان ينبغى لسيكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبوفيس ... ؟ » وضايقه جد المضايقة أن يسلك الرجل فى استقباله سلوك الملوك . وغادرا السفينة بين صفين من الجند والضباط ، ورآى خيان على الشاطىء ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخر ، وأدى له الجند التحية فردها بكبرياء ، وركب عجلته وركب الى جانبه حور ، ثم تحرك الموكب الصغير فى طريقه الى قصر حاكم الجنوب ، وتحركت عينا خيـان فى محجريهما ذات اليمين وذات الشمال تشـاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصـور والأسواق وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات ، فالعامة بأجسامهم شبه العارية ، والضباط بمعاطفهم الأنيقة ، والكهنة بأثوابهم الطويلة ، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة ، والنساء بأزيائهن الجميلة فكأن كل شىء يشهد لعظمـة المدينة ، وأنها تنافس منف نفسـها عاصمة أبوفيس . وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة وأن الناس تتجمع على جوانب الطرق لمشاهدته ولكن فى برود وجمود ، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيتـه الطويلة بغرابة وانكار وامتعاض ، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذاك الاستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله ، وسـاءه أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها .. وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مصر مائتى

عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس .

ثم بلغ الموكب ميدان القصر ، وكان ميدانا فسيحا مترامي الأركان ، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش، ويبدو في مكانه الوسيط القصر الجليل يبهر الأنظار مشهده الرائع ؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه ، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صفين لدى بابه الكبير ، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية ، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا « هل يستقبلني سيكننرع وعلى رأسه التاج الأبيض ؟ » .

انه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم ، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم فهل يلبس تاج الجنوب أمامي ؟ .. هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سينكننرع ؟.. وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل ، ووجد في استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعوني وكبار الضباط ، فأدوا له التحية جميعا ، وساروا بين يديه الى بهو الاستقبال الفرعوني ، وكانت الردهة المؤدية الى باب البهو مزينة الجانبين بتماثيل أبي الهول ، وفي أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء ، وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له ، فتقدمه الحاجب حور الى داخل البهو وتبعه الرجل ، ورأى في صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب ، وبيده الصولجان والعصا المعقوفة ، والى يمين عرشه يجلس رجلان ، والى شماله رجلان ، وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه باجلال ، وقال بصوته الرقيق :

ـ مولاى ، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس .

وانحنى عند ذاك الرسول تحية، فرد الملك تحيته وأشار اليه فجلس على

كرسى أمام العرش ، أما حور فقد وقف الى يمين العرش . وأراد الملك أن يقدم الى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه الى الرجل الذى يلى يمينه وقال : « أوسر امون رئيس الوزراء » ثم أشار الى الذى يليه وقال : « نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون » ثم تحـول الى شماله وأومأ الى من يليه قائلا : « كاف قائد الأسطول » وأشار الى من يليه قائلا : « بيبى قائد الجيش » ولما تم التعـارف وجه الملك ببصره الى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيتين :

— نزلت منزلا يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقته .

فقال الرسول :

« حفظك الرب أيها الحاكم الجليل ، وانى سعيد باختيارى لمهمـة السفارة فى بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية .. » .

ولم يغب عن سمع الملك قوله « الحاكم الجليل » ولا فاته مغزاها ، ولكن لم يبد على وجهه أى أثر لما اضطرب فى نفسه ، وكان خيان فى تلك اللحظة يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجلا مهيبا حقا ، طويل القامة ، مستطيل الوجه جميله ، شديد السمرة ، يميز ملامحه بروز فى أسنانه العليا ، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمرا . وكان الملك يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تجىء بعثات الشمال من أجله ، أى طلب الأحجار والحبوب ، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية ، ورآه ملوك طيبة رشـوة يكفون بها شر الغزاة ، فقال الملك بهدوئه وجلاله :

— يسرنى أن أستمع اليك يا رسول أبو فيس العظيم .

فاعتـدل الرسول فى جلسـته كأنما يتوثب للنضـال وقال بصوته الغليظ :

— منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب ، وفى كل مرة تعود راضية .

فقال الملك : « أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة » .

فقال خيان : « أيها الحاكم انى أحمل اليك ثلاث رغبات فرعونية : تتعلق الأولى بشخص مولاى فرعون ، والثانية بربه المعبـود ست ، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب » .

فألقى اليه الملك باتنباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام ، فاستدرك الرجل قائلا :

ــ شكا مولاى الملك فى الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهز أعصابه فى الليل ، وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكريمتين مما أوقعه فريسة للسهاد والضنى ، وقد دعى اليه أطباءه وقص عليهم ما يلقى بليله فتفحصوه بعناية ، ولكنهم عادوا جميعا من فحصه بالحيرة والجهل ، وكان الملك فى رأيهم جميعا سليما معافى ، ولما يئس مولاى فزع الى نبى معبـد ست . فأدرك الحكيم داءه ، وقال له ان مبعث آلامه جميعا أن خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرب الى قلبه ، وأكد له ألا شفاء له الا بقتلها .

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة فى بركة طيبة مقدسـة ، فاختلس نظرة الى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه ، ولكنه وجده جامدا صلبا وان تضرج بالاحمرار ، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه ، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الاصغاء والانتظار ، فقال الرسول :

ــ وفى أثناء مرض مولاى رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيته ، وعتب عليه قائلا أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمى ؟ . فأقسم مولاى أن يطلب الى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد فى طيبة معبدا لست الى جانب معبد آمون ..

وسكت الرسول ولكن سيكننرع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرة أنه أخذ على غرة ، وأنه فوجىء بما لم يدر له فى خلد ، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبـة فى اثارته ، وأدرك الحاجب حـور خطر المطالب ، فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلا : « الأفضل ألا يناقش مولاى الرسول الآن » . فهز الملك رأسه دلالة

الموافقة وقد أدرك ما يرمى اليه حاجبه ، وظن خيان أن الحاجب يفضى الى مولاه بما يقوله فانتظر قليلا ولكن الملك قال :

ــ أعندك بلاغ آخر تفضى به ؟

فقال خيان :

ــ أيها الحاكم الجليل ، لقد بلغ مولاى أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض ، فراعه ذلك ، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية .

فقال سيكننرع بدهشة :

ــ ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب .

فقال الرسول بيقين واصرار :

ــ بل كان تاج الملوك منهم ، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه ، لأنه كان يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج ، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك ماتدل عليه ملاحظة مولاى من رغبة صادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى منف وطيبة . . .

وسكت خيان فساد الصمت مرة أخرى ، وكان سيكننرع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تهاجم موطن الايمان من قلبه وموضع العزة من نفسه وبدا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته . وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جوابا وقال بصوت محتفظ بالرغم من كل شىء بهدوئه :

ــ أيها الرسول ان رسالتك تنطوى على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا لذلك أرى أن أكاشفك برأيى فيها غدا .

فقال خيان :

ــ خير الرأى ما سبقته المشورة .

فالتفت سيكننرع الى الحاجب حور وقال :

ــ تقدم الرسول الى الجناح المعد له .

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم ، وانحنى تحية ثم ذهب يسير فى خيلاء وعظمة .

## ٣

وأرسل الملك فى طلب ولى عهده الأمير كاموس ، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته فى معرفة رسالة حاجب أبوفيس . وحيا الملك فى اجلال واتخذ مكانه الى يمينه ، والتفت اليه الملك وقال :

ــ لقد أرسلت فى طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال ، لترى فيه معنا رأيك ، وان الأمر لجد خطير فأصغ الى ...

ثم روى الملك لولى عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين ، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محياه الحسن الذى يشبه أباه فى لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا ، ثم أدار الملك عينيه فى الحاضرين ، وقال :

ــ فها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكى نرضى أبو فيس ينبغى أن نخلع هذا التاج ، ونذبح أفراس البحر المقدسة ، ونشيد معبدا لست يعبد فيه الى جانب معبد آمون ، فأشيروا على بما يجب عمله ..

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعا يدل على ما يعتلج فى صدورهم من الهم ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين ، فقال :

ــ مولاى ، ان الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى أملاها ، فهو روح سيد يملى على عبده ، وملك يتجنى على شعبه ، وما أراها الا صورة متجددة لذاك النزاع القديم بين طيبة ومنف ، هذه تسعى لاستعباد تلك ، وتلك تتشبث باستقلالها ماوسعتها الحيلة ، وما من شك فى أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة

الأبواب دون حكامهم ، ولعلهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم ، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها ، ويتحكموا فى عقيدتها فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها .

وكان حور فى القائه قويا صريحا ، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة ، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكى يحفظوا الجنوب من توغلهم وشرهم ، وكان لأسرته فى هذا السبيل فضل وأى فضل ، حتى استطاع والده سينكننرع أن يدرب قوات عظيمة سرا ليصون بها استقلال مملكته ، اذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء فى صونه ... ثم قال القائد كاف :

ـ مولاى ... أرى أنه لا يجوز التسليم بأى مطلب من هذه المطالب ... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه ؟... كيف نقتل الأفراس المقدسة ارضاء لعدو أذل قومنا ؟... وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذى يعبده أولئك الرعاة ؟.

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون :

ـ مولاى ... ان الرب آمون لا يرضى أن يشيد الى جانب معبده معبد لاله الشر ست ، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة ، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توج به رأسه بأمره ... كلا يا مولاى ان آمون لا يرضى بذلك أبدا ، وانه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال ، وتحقيق وحدة الوطن ، فيعود كما كان فى عهود الملوك السالفين ...

فجرى الحماس فى عروق القائد بيبى مجرى الدماء ، ووقف بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين ، ثم قال بصوته الجهورى :

ـ مولاى . صدق رجالنا العظام فيما قالوا ، وانى لعلى يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطلب ذلك الهمجى الهابط وادينا من أقاصى الصحارى الماحلة الى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد رب

الشر ويذبح الأفراس المقدسة ؟... لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالا فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فانهم يطمعون فى حريتنا وشرفنا ، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب ، ان قومنا فى الشمال عبيد يحرثون الأرض ويحترقون بألسنة السياط ، ونحن نرجو أن نخلصهم يوما مما يعانون من عذاب لا أن نمضى بارادتنا الى مثل مصيرهم التاعس .

لازم الملك الصمت ، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر الى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكن ، وكانت ميوله مع القائد بيبى فقال بعنف :

ـ مولاى ... ان أبو فيس ينظر بعين الجشع الى عزتنا القومية ، ويأبى الا أن يذل الجنوب كما أذل الشمال ، ولكن الجنوب الذى لم يرض المذلة وعدوه فى أوج قوته لن يرضاها الآن ... فمن يقول اننا نفرط فيما اشتد أسلافنا فى صونه ورعايته ؟...

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم الى الاعتدال ، وكانت سياسته موجهة دائما الى تفادى غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهمجية لكى يتفرغ الى انماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب ، وقد خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش ، فقال موجها كلامه الى رجال المملكة :

ـ اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب ، ويستذل نفوسهم ، ويشغل همهم عن شريف المقاصد .

فهز القائد بيبى رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

ـ يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهدا كافيا لنعرف نفوسهم ، فهم أناس اذا رغبوا فى شيء طلبوه بلسان صريح دون

التوسط اليه بالحيلة والمواراة ، وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل اليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حريتنا ...

فقال الوزير :

ـ ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

فقال القائد :

ـ ان جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس الى أبيه فوجده ما يزال يطرق الى أسفل فقال بحماس :

ـ ما جدوى الكلام ؟ ... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات ، ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال، وليس فى الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت ، فلنرفض هذه المطالب باباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوى اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التى لم تطهرها الشمس ...

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز والغضب وكأنما سئموا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ، ورفع الملك رأسه ورنا الى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلا :

ـ أترى أن ترفض مطالب أبو فيس أيها الأمير ؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

ـ بكل حزم واباء يا مولاى .

ـ واذا جر الرفض الى الحرب ؟

فقال كاموس : « نحارب يا مولاى ... »

وقال القائد بيبى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

ـ نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا ، واذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر الشمال ونجلى عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحى الطويلة القذرة .

فالتفت الملك الى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

ــ وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى ؟

فقال الشيخ الوقور :

ــ أرى يا مولاى أن من يحاول اطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر ...

فابتسم الملك سيكننرع راضــيا ، وتحول الى وزيره أوسر آمون قائلا : « لم يبق الا أنت أيها الوزير » .

فبادر الرجل يقول :

ــ مولاى ، لم أنصح بالتريث كراهية فى الحرب أو خوفا منها ، ولكن لنستكمل الجيش الذى أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاى المجيــدة ، وهى تحرير وادى النيل من قبضــة الرعاة الحديدية ، وأما اذا كان أبوفيس يطمع حقا فى حريتنا فأنا أول من يدعو الى الحرب .

فنظر سيكننرع فى وجوه رجاله ، وقال بصوت دل على العزم والقوة :

ــ يا رجال الجنوب انى أشرككم فى عواطفكم ، وأعتقد أن أبوفيس يتحرش بنا ويطمع فى أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب ، ونحن قوم لا نذعن للخوف ونرحب بالحرب . ان الشمال فريسة الرعاة منذ مائتى عام . امتصوا خير أرضه وأذلوا رجاله . أما الجنوب فانه يكافح منذ مائتى عام غير غافل عن غايته العليا وهى تحرير الوادى جميعه ، فهل ينكص على عقبيه لأول تهديد ، ويفرط فى حقه ، ويلقى بحريته وديعة بين يدى الطامع النهم ؟.. كلا يا رجال الجنوب ، سأرفض مطالب أبوفيس المهينة ، وأنتظر ما يرد به علينا ان سلما فسلم وان حربا فحرب ..

وقام الملك واقفا ، فقام الرجال قومة واحــدة وانحنوا اجلالا ، ثم غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر ..

# ٤

وتوجه الملك الى جنـاح الملكة أحوتبى ، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها فى لباسه الرسمى أن رسول الشمال جاء بأمر جلل ، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل ، وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة ، ورفعت اليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء :

ـ أحوتبى ... يبدو لى أن الحرب تطبق علينا مع الأفق ...

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة : « أتقول الحرب يا مولاى ؟ » .

فحنى رأسه دلالة الايجاب ، وقص عليها ما قال الرسول خيـان ، ورأى رجاله فيه ، وما اسـتقر عليه عزمه ، وكان يحـدثها وعيناه لا تتحولان عن وجهها فقرأ فى صفحته ما اضطرم فى نفسها من الاشفاق والأمل والاستسلام .

وقالت له : لقد اخترت السبيل التى ينبغى لمثلك أن يختارها .

فابتسم وربت كتفهـا ، ثم قال لها « هيا بنا الى أمنا المقدسة » .

ثم سارا معا جنبا الى جنب الى جناح الملكة الوالدة توتشـيرى زوج الملك السابق سينكننرع ، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها ...

كانت الملكة توتشـيرى فى الستين من عمرها تبدو على محياها آى النبل والمجد والمهابة ، وكانت « حيويتها » دفاقة فغلب نشاطها الكبر ، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلل فوديها ، وذبول خفيف يعلو خديها ، وظلت عيناها على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته ، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة فى بروز أسنانها العليا ، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة ، وقد تخلت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون ، تاركة مقاليد طيبـة لابنها وزوجه ، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع اليه فى الملمات ، والقلب الذى

يلهم الأمل والكفاح ، وقد أقبلت فى فراغها على القراءة ، وكانت تديم المطالعة فى كتب خوفو وقاقمنا وكتاب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التى خلدها أمثال مينا وخوفو وامنحيت ، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة فى الجنوب جميعه ، فما من رجل أو امرأة الا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب ، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام ، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين ، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب ، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واستعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم الى مستوى البهائم التى تعمل فى الحقول ، فاذا كان فى الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحيى الآمال فالفضل فى اذكائها لوطنيتها وحكمتها ، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتشيرى ، كما يدعو المؤمنون الربة ايزيس ، وعاذوا باسمها من شر اليأس والهزيمة ...

هذه هى الأم التى قصدها سيكننرع وأحوتبى ، وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة ، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة الى زوجها الراحل فى طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع . . . وكان زوجها يبعث بالسفن محملة ليتقى قوة القوم الهمجية ، ويضاعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش الذى كان أعز ما أورثه سيكننرع ابنه وخلفه . ذكرت ذلك وهى تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبلا يديها ، وجلس الملك الى يمينها والملكة الى شمالها ، فسألت ابنها وهى تبتسم ابتسامة رقيقة :

ـ ماذا يريد أبو فيس ؟ ..

فقال بلهجة تنطوى على الحنق :

ـ يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا . بل ماهو أجل من هذا ؛ انه يساومنا هذه المرة على شرفنا .

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كل شيء :

ـ كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب ..

فقالت الملكة أحوتبى :

ـ أما هو يا أماه فانه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق صوتها رقاده ، وأن نشيد معبدا لربه ست الى جانب معبد آمون ، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض ...

ووافق سيكننرع على قول أحوتبى ، وقص على أمه نبأ الرسول ورسالته .

فبدا الانكار على وجهها الجليل ، ودل التواء شفتيها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة :

ـ وبماذا أجبته يا بنى ؟ ..

ـ لم أبلغه جوابى بعد ...

ـ وهل انتهيت الى رأى ؟ ...

ـ نعم ... أن أنبذ مطالبه جميعا ...

ـ ان من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها !

ـ ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه ...

ـ فاذا شهر عليك حربا ؟

ـ شننت عليه حربا بحرب ...

ورنت الحرب فى أذنيها رنينا عجيبا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة ، وذكرت أياما مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو اليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشا قويا يدفع به طمع عدوه ، أما ابنها

فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة ، فقد تغير الزمن وتجدد الأمل ، واختلست من وجه الملكة نظرة فوجدته شاحبا ، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة واشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة ... وهى نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول الا ما ينبغى لمعلمة القوم وأمهم المقدسة أن تقوله . وقد سألته : « وهل تقدر على الحرب يا مولاى ؟ » . فقال بثبات :

ـ نعم يا أماه ... لدى جيش باسل .

ـ هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال ؟ ..

ـ يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة ..

ثم هز منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ :

ـ أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاما بعد عام فلم تفلح المداراة فى اسكات جشعهم ، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع ، وقد حم القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمداراة ، سأخطو هذه الخطوة وأنتظر ما بعدها ...

فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار :

ـ فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية .

ـ فماذا تقولين يا أماه ؟

ـ أقول يا بنى سر فى طريقك يرعاك الرب وتباركك دعواتى ، هذه غايتنا وهذا ما ينبغى للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال طيبة الخالدة .

وابتهج سيكننرع وتألق بالنور وجهه ، وهوى على رأس توتيشيرى فقبل جبينها ، وقبلت خده الأيسر ، وقبلت خد أحوتبى الأيمن وباركتهما معا ، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين ...

## ٥

وأعلن الرسول خيان أن سيكننرع سيستقبله غداة غد ، وفى الموعد المحدد ذهب الملك الى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابه ، وهناك وجد فى انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدى الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه ، وجلس على العرش وأذن لهم فى الجلوس ، ثم صاح حاجب الباب معلنا وصول الرسول خيان ، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء ، وكان يسائل نفسه ترى ماذا وراء الشورى ؟ .. أسلام أم حرب ؟ .. ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه ، ورد عليه الملك التحية وأذن له فى الجلوس وهو يقول :

— عسى أن تكون قد قضيت ليلة سعيدة .

— كانت ليلة سعيدة ، شكرا لضيافتك الكريمة .

ولاحت منه التفاتة الى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه ، فانقبض صدره واحتدم الغيظ فى قلبه ، وكبر عليه أن يتحداه كذلك حاكم الجنوب ، وكان الملك لايحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب ، فأراد أن يقول رأيه صريحا حازما قاسيا فقال :

— أيها الرسول خيان ، لقد درست المطالب التى تحملها الينا بعناية ، وشاورت فيها رجال مملكتى ، فاتفق رأينا جميعا على رفضها...

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم ، فأخذ واستولى عليه الذهول ، ونظر الى سيكننرع باستغراب وانكار وقد صار وجهه كالجمان ، واستدرك الملك قائلا :

— لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا ، ونحن لا نسمح لأى انسان أن يمس العقيدة والشرف منا .

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال الملك :

ــ اذا سألنى مولاى لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبــدا لست فماذا أقول له ؟

ــ قل له ان أهل الجنوب يعبدون آمون وحده ...

ــ واذا سألنى لماذا لا يقتلون أفراس البحر التى تقض مضجعى ..؟

ــ قل له ان أهل الجنوب يقدسونها ...

ــ يا عجبا ... أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر ؟ ..

فأطرق سيكننرع مليا كأنه يفكر فى الجواب ، ثم قال بلهجة حازمة :

ــ ان أبو فيس مقدس لديكم ، وهذه الأفراس مقدسة لدينا .

وسرت موجة ارتياح فى نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف ، أما خيان فقد اشتد به الغضب ، ولكنه لم يستسلم لسلطانه ، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء :

ــ أيها الحاكم الجليل ، كان أبوك حاكما على الجنــوب ولم يكن يلبس هذا التاج ، فهل ترى لنفسك حقا غير ماكان يرى أبوك لنفسه ؟.

ــ لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القــدم ، ومن حقى أن أتوج به رأسى .

ــ ولكن فى منف رجــل آخر يتوج رأسه بتــاج مصر المزدوج ، ويسمى نفسه فرعون مصر ، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه ؟ ..

ــ أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة ..

ونفد صبر خيان فقال بحنق واحتقار :

ــ أيها الحاكم ، لاتظن أن لبسك التاج برافعك الى مصاف الملوك ، فالملك من بعــد ومن قبل قوة وسلطان . ولست أرى فى أقوالك الا استهانة بالوشائج الطيبة التى ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا ، ونزوعا الى التحدى لا تؤمن عواقبه .

فتبدى الغضب على وجوه الحاشية ، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلا :

ــ أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر ، ولكن اذا تحرش بشرفنا متحرش لانتكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة ، ومن فضائلنا ألا نغالى فى تقدير قوتنا فلا تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخرا . ولكن اعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ماوسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه ..

فعلت شفتى خيان الحادتين ابتسامة ساخرة تخفى حقدا مرا . وقال بلهجة ذات مغزى :

ــ كما تشاء أيها الحاكم وما على الا البلاغ . وستتحمل تبعة أقوالك.

فحنى الملك رأسه ولم يتكلم . ثم قام واقفا مؤذنا بانتهاء المجلس فوقف الجميع اجلالا حتى غيبه الباب عن أنظارهم ..

## ٦

وكان الملك يقدر خطر الحال ، فأراد أن يزور معبد آمون . ليدعو الرب المعبود ويعلن الكفاح فى الفناء المقدس ، وأعلن ارادته لوزيره ورجاله . فقصدت جموعهم من وزراء وقواد وحجاب وكبار موظفين الى معبد آمون لتكون فى استقبال الملك . وتنبهت طيبة الغافلة الى ما يدور وراء جدران قصورها الشم . وتهامس كثيرون بأن رسول الشمال جاء متعاليا وآب غاضبا . وذاع بين الطيبيين أن سيكنرع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأى ويسأله المعونة فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء الى ميدان المعبد ، وانضم اليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد ، وتدافعوا الى السبل المؤدية اليه ، وكان يبدو على وجوههم الجد والاهتمام والتطلع ، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم

الحديث كل يفسر الأمر على ما يرى ، وجاء الركب الفرعونى تتقدمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك وعربات أخر تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكى ، فسرت فى نفوس القوم موجة من الحماس والفرح ، ولوحوا لمليكهم بأيديهم وهللوا له وكبروا ، فابتسم سيكننرع اليهم ولوح لهم بصولجانه ، ولم يغب عن أحد أن الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة ، فاشتد تشوف الناس الى سماع الأخبار ، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء ورجالا ، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد بالسجود ، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلا « أدام الرب حياة الملك وحفظ مملكة طيبة » وردد القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده ، فحياه الملك برفع يده الى رأسه وابتسامة من فمه العريض ، ثم تقدم الجمع بأسره الى بهو المذبح ، وقدم الجنود ثورا ذبيحا للرب ، ثم طافوا جميعا بالمذبح وبهو الأعمدة ، وهناك وقفوا صفين وأعطى الملك صولجانه الى ولى عهده الأمير كاموس وسار الى السلم المقدس فارتقاه الى قدس الأقداس ، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة ، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق ، وحنى رأسه وخلع تاجه اجلالا للمكان المطهر ، وتقدم نحو المحراب الثاوى فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة ، ثم سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى :

أيها الرب المعبود ، رب طيبة المجيدة ، ورب أرباب النيل ، هبنى من لدنك رحمة وقوة ، فانى اليوم أتعرض لتبعة خطيرة ان لم تشدد فيها أزرى عييت دونها . هى الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذى سقط علينا من صحراء الشمال فى جموع همجية خربت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا ، هبنى معونتك أصد جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادى من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه الا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه الا اسمك .

وسكت الملك ، وانتظر برهة ، ثم استغرق مرة أخرى فى صلاة طويلة حارة مسندا جبينه الى قدمى التمثال ، ثم رفع رأسه فى وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخبىء وراءه أحداث القضاء .

* * *

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصد بالعرق فسجدوا له جميعا ، وتقدم معه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه بيمناه وقال بصوت جهورى :

يا رجال طيبة المجيدة ، لعل عدونا فى هذه الساعة التى أحدثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا ، فهلموا جميعا الى الكفاح ، وليكن شعار كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده فى عمله ، كى يقوى جيشنا على الثبات والقتال ، ولقد صليت للرب وسألته العون ، وليس الرب بناس وطنه وأبناءه ...

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد : « أيد الرب مليكنا سيكننرع .. » وهم الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال :

ــ هل لمولاى أن ينتظر قليلا لأقدم اليه هدية مقدسة ...؟

فقال الملك مبتسما : « كما تشاء يا صاحب القداسة .. »

وأشار الكاهن الى كاهنين اشارة خاصة فمضيا الى حجرة المخلفات ، وعادا يحملان صندوقا صغيرا من الذهب تطلعت اليه الأبصار جميعا ، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق فى أناة ورفق ، فرأت الأعين بداخله تاجا فرعونيا ، تاج مصر المزدوج ، فاتسعت الأعين دهشة وتبودلت النظرات ، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدج :

ــ مولاى هذا تاج الملك تيمايوس ...

فتصايح قوم قائلين « تاج الملك تيمايوس ... » فقال نوفر آمون بحماس وقوة :

ــ نعم يا مولاى ، هذا تاج تيمــايوس آخر فرعــون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا . وقد شاءت حكمة الرب أن تحل نقمته ببلادنا فى عهده ، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى فى الدفاع أشد البلاء ، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه ، لذلك رفعه أسلافنا الى هذا المعبد ليأخذ مكانه بين المخلفات المقدسة ، لقد مات صاحبه بطلا شهيدا فهو جدير برأسك الكبير ، وانى أتوجك به أيها الملك سيكننرع ، يا ابن توتيشيرى الأم المقدسة ، وأنادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة ، وأدعوك باسم الرب آمون وذكرى تيمايوس وأهل الجنوب أن تنفر الى قتال عدونا وتحرير وادى النيل الطاهر المحبوب ... »

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وســلمه الى أحد رجال الكهنوت ، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعه على الرأس المجعد ، ثم صاح هاتفا « ليحى سيكننرع فرعون مصر » فردد القوم هتافه ، وهرع كاهن الى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكننرع ، فردد الطيبيون الهتــاف فى حماســة مستعرة . ثم هتف بقتــال الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد ، وقد أيقنوا بما كانوا منه فى شك ...

وحيا فرعون الكهنة ، ثم اتجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية ...

# ٧

وعلى أثر وصول فرعون الى قصره دعا الى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدي الجيش والأسطول وقال لهم :

ــ ان سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعا ، وستتعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب ، فينبغي ألا نضيع ساعة من وقتنا .

والتفت الى قائد الأسطول كاف وقال :

ــ أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء ، فالرعاة تلاميذنا في القتال في السفن ، هيىء سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال ...

فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على عجل . وتحول الملك الى القائد بيبي وقال :

ــ أيها القائد بيبي ، ان قوة جيشنا الأساسية معسكرة في طيبة ، فسر بها الى الشمال ، وسألحق بك على رأس قوة من حرسي الأشداء ، واني أدعو الرب أن يثبت جنودي أنهم جديرون بالمهمة الملقــاة على عاتقهم ، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول الى بانوبوليس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية الى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة ..

فأدى القــائد التحية لمولاه ومضى ، وجعل الملك يقلب وجهه في وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم :

ــ سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا ، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والاخلاص.

فقالوا في صوت واحد :

ــ كلنا فداء للملك ولطيبة .

فقال سيكننرع :

ــ يا نوفر آمون ابعث رجالك الى القرى والبلدان يحثون قومى على الجهـاد ، وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشـداء والقادرين من شعبى ، أما أنت يا حور فانى أعهد اليك بآل بيتى ولتكن لابنى كاموس كما كنت لى .

وحيا الملك رجاله وغادر المكان قاصدا الى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل ، وأرسل فى طلبهم جميعا فجاءت الملكة أحوتبى والملكة توتيشيرى والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغيرة الأمير أحمس وابنتهما الصغيرة الأميرة نيفرتارى ، فاستقبلهم استقبالا وديا وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدفق من بين أضلعه، ومضى يقلب عينيه فى أحب الوجوه الى قلبه وكأنه يرى وجها واحدا يتكرر لا يفرق بينها سوى العمر : فتوتيشيرى فى الستين ، وأحوتبى مثـل زوجها فى الأربعين ، أما كاموس وستكيموس ففى الخامسـة والعشرين ، وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة ، وأخته نيفرتارى دون ذلك بعامين ، ولكن ما من وجه فيهم الا تتألق فيـه هاتان العينان السوداوان وذاك الفم الذى يميل الى البروز أعلاه ، وتلك السمرة الخمرية التى تضفى عليه صحة وحسـنا . وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال :

ــ تعالوا نجلس معا ساعة قبل الرحيل ...

فقالت توتيشـيرى « انى أدعو الرب يا بنى أن يكون ذهابا الى النصر المبين » .

فقال سيكننرع « انى كبير الأمل فى النصر يا أماه ... » .

ورأى الملك ولى العهد فى لبـاس الحرب فأدرك أنه يظن نفسه خارجا معه فسأله متجاهلا :

ــ لماذا ترتدى هذا اللباس ؟...

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال ، وقال باستغراب :

ــ للسبب الذى من أجله ترتديه أنت يا مولاى .

ــ هل جاءك أمرى بذلك ؟

ــ ظننت المسألة لا تحتاج الى أمر يا مولاى .

ــ أخطأت يا كاموس .

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال :

ــ هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاى ؟

ــ ان ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى ، وستبقى على عرشى يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمد جيشنا بالرجال والمئونة .

فامتقع وجه الشاب ، وحنى رأسه كأنما أثقله أمر الملك ، وأرادت توتيشيرى أن تخفف عنه فقالت برقة :

ــ كاموس ... ان القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهين الذى يخزى انسانا وهو عمل جدير بمثلك .

وهنا وضع الملك يده على منكب ولى عهده وقال :

ــ اصغ الى يا كاموس ، اننا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الرب ، ونحرر بلادنا المحبوبة مما تقيد به من الأغلال ، على أنه من الحكمة أن تقدر جميع العواقب ، وقد قال حكيمنا قاقمنا : « لا تضع كل أسهمك فى جعبة واحدة » .

وسكت الملك عن الكلام ، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتى استأنف الملك قائلا :

ــ فاذا شاءت حكمة الرب أن يبوء جهادنا بخذلان فما ينبغى أن ينقطع جهادنا قط ... أصغوا الى جميعا ، اذا سقط سيكننرع فلا تيئسوا فسيخلف كاموس أباه ، واذا سقط كاموس خلفه أحمس الصغير ، واذا فنى جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال ، وان تسقط بطلمايس فلتحارب كبتوس وان تقتحم طيبة فلتثب أمبوس وسيين وبيجه ، أو يقع الجنوب فى أيدى الرعاع فهنالك النوبة لنا فيها رجال

أشداء مخلصون ، وستتولى توتيشيرى الأبناء بما تولت به الآباء والأجداد ، فلا أحذركم الا من عدو واحد هو اليأس ...

وكان لكلام الملك وقع شديد فى نفوس الجميع حتى أحمس الصغير ونيفرتارى وجما وعلاهما الارتباك ، وعجبا كيف يحدثهما جدهما بهذه اللهجة الجدية أول مرة ، واغرورقت عينا الملكة أحوتبى بالدموع ، فتكدر سيكننرع وقال بلهجة لم تخل من عتاب :

ـ أتبكين يا أحوتبى ... انظرى الى شجاعة أمنا توتيشيرى ...

ثم نظر الى أحمس وكان يكلف به كلفا عظيما ، وكان الغلام صورة صادقة من جده ، فجذبه اليه وقبله وسأله مبتسما :

ـ من العدو الذى يجب أن نحذره يا أحمس ؟.

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول :

ـ اليأس ...

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى : ثم قام واقفا وقال برقة « هلموا نتعانق ... » ثم عانقهم جميعا مبتدئا بتوتيشيرى وزوجه أحوتبى وستكيموس زوج ابنه ثم أحمس ونيفرتارى : ثم انعطف نحو كاموس ، وكان واقفا فى جمود واستسلام ، فمد له الملك يده فشد عليها بقوة ، ثم انحنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت : « فلتصحبك السلامة يا أبتاه » ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتتين وقد تجلى على وجهه العزم والبأس ...

* * *

وخرج الملك على رأس قوة من حرسه والتقى فى ميدان القصر بجموع شعب طيبة المتحمس ، فخال أهل طيبة جميعا رجالا ونساء وأطفالا قد انتقلوا الى ميدان القصر يحيون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيا تحرير الوادى ، وشق سيكننرع طريقه بين موجهم

المتلاطم قاصدا باب طيبة الشمالى ، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين فى توديعه ، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلا ، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له « سأستقبلك يا مولاى بعد حين قليل ورأسك مكلل بالغار ... اللهم استجب » .

واجتاز الملك باب طيبة العظيم فى طريقه الى الشمال تاركا وراءه أسوار المدينة العظيمة ، وكان عظيم التأثر لما رأى ولما سمع ، وقد شعر بخطر العمل الكبير المقبل عليه ، وكيف أنه ينطوى على اسعاد شعبه أو اشقائه الى أمد طويل ، لقد وضع مصير القوم فى قبضة يده وواجه المخاطرة المروعة التى وقف منها أبوه موقف المتمهل المتريث ، ولم يكن سيكننرع من الحكام المترفين ولكن كان خلقه ينطوى على الصلابة والبسالة والتقشف والتدين ، وكان عظيم الأمل قوى الثقة بقومه . وقد لحق جيشه بالمعسكر فى بلدة شنهور شمال طيبة قبيل المساء ، واستقبله القائد بيبى على رأس قواد الفرق ، وكان مضعضع الحواس لما أصابه من ارهاق ووصب ، ولم تغب حالته عن عينى الملك فقال له :

ـ أراك متعبا أيها القائد :

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال :

ـ استطعنا يا مولاى أن نجمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة ، فكونت جيشا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل .

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت فى نفوسهم موجة فرح وحماس وتردد الهتاف له فى المعسكر شمال بلدة شنهور ، ثم كر راجعا الى الخيمة الملكية وفى صحبته القائد بيبى ، وكان الملك مطمئنا الى جيشه الذى بذل أجمل عهود شبابه فى تدريبه فقال :

ـ جيشنا باسل .. فكيف ترى شعور القواد ؟

ـ كلهم متفائلون يا مولاى ومتحمسون للحرب ، وما من واحد

منهم الا يبدى عظيم اعجابه بفرقة القسى ذات الشهرة التاريخية .
فقال الملك :

ــ انى أشارككم هذا الاعجاب ، والآن أصغ الى ، لا يجوز أن نضيع من الوقت الا ما تستلزمه ضرورة اراحة هذا العدد من الجنود ، فانه ينبغى أن نلقى عدونا ــ اذا هاجمنا حقا ــ فى الوادى المنحدر ما بين بانوبوليس وبطلوس ، فهو واد شديد الوعورة ضيق المسالك ، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه ، ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا فى أثناء اشتباكه مع أسطول العدو ..

ــ سنشرع فى المسير يا مولاى قبيل الفجر .

فأومأ الملك برأسه دلالة على الموافقة وقال :

ــ ينبغى أن نبلغ بانوبوليس ونعسكر فى واديها قبل أن يعود خيان الى منف ...

ثم دعا الملك قواده الى الاجتماع به .

## ٨

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه الى أهدافه قوة الكشافة ، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتى عجلة على رأسها فرعون ، وتتبعها فرقة الرماح ، ثم فرقة القسى والنبال ، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة ، وعربات المؤن والسلاح والخيام . وأبحر الأسطول فى الوقت نفسه الى الشمال ، وكان الظلام شديدا لا يخفف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء المشاعل ، فبلغوا مدينة قسى بعيد مطلع الفجر ، وكان نبأ الجيش قد سبقه الى المدينة مع الكشافة فهبت جميعا لاستقبال فرعون وجيشه ، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة ، وساروا مع الجيش يهتفون له ويهدون الى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهية ،

ولم يتركوه حتى أوغل فى المسير . وبهتت طلعة الليل وانسكب فى الأفق الشرقى نور الفجر الأزرق الهادىء يتقدم بشائر النور ، ثم أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد فى السير حتى بلغ كنوت قبيل العصر ، فاستراح فيها وقتا بين المستقبلين من أهلها المتحمسين . ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش فى تنثيرا فأصدر أمره باستئناف المسير ، وجد الجيش حتى بلغ تنثيرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق ..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب فى الأرض حتى حلول الظلام يوما بعد يوم حتى عسكر فى ابيدوس ، وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقواما تضرب فى الأرض ، فعدا على رأس ثلة من رجاله نحو القادمين ، وكان كلما هبط الوادى تبين له الأمر فرأى خطوطا متعرجة من الفلاحين يسيرون جماعات يحملون ما خف من متاعهم ، ومنهم من يسوق غنما أو ثيرانا يدل منظرهم على البؤس والتشرد ، فعجب الرجل واعترض سبيل المتقدمين منهم وهم بسؤالهم ، ولكن رجلا منهم صاح به :

— الغوث أيها الجندى ... أدركونا فقد هلكنا ..

فصاح الضابط منزعجا :

— تطلبون الغوث ؟.. ماذا يفزعكم ؟

فأجاب كثيرون منهم فى نفس واحد : « الرعاة ... الرعاة ... »

وقال الرجل الأول :

— نحن أهالى بانوبوليس وبطلمايس ، جاءنا جندى من جنود الحدود وقال لنا ان جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوات عظيمة لن تلبث أن تتدفق الى بلدتنا ونصحنا بالهجرة الى الشمال ، فساد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعا الى ديارنا نادى النساء والأطفال ونحمل ما يخف حمله ، ثم تركنا البلاد وراءنا فارين فما ذقنا الراحة منذ صباح الأمس ..

وكان يبدو على وجوههم الاعياء والخور فقال لهم الضابط :

ــ استريحوا قليلا ثم جدوا فى السير ، فعما قليـــل ينقلب هذا الوادى الساكن ميدانا للقتال .

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به الى خيمة القائد فى ابيدوس ، وأبلغه الخبر ، وقام بيبى من فوره الى الملك وقص عليه الخبر فتلقاه بدهشة وانزعاج وصاح :

ــ كيف وقع هذا ... هل بلغ خيان منف فى هذا الزمن اليسير ؟...

فقال بيبى بحنق :

ــ لاشك يا مولاى فى أن عدونا حشد جيشه على حــدودنا قبل أن يبعث الينا برسوله ، فهو كان يتربص بنا ، وما عرض علينا مطالبه الا وهو يرجو أن نرفضها ، فلما اجتاز خيان حدودنا عائدا أصدر أمره للجيوش المحتشدة بالهجوم ، هذا هو التفسير المعقول لذلك الهجوم السريع العنيف ..

فاصفر وجه الملك سيكننرع غضبا وحنقا وقال :

ــ اذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس ..

ــ نعم واأسفاه يامولاى ، ولن يجدى فى الدفاع عنهما بسالة حاميتنا قليلة العدد .

فهز الملك رأسه أسفا وقال :

ــ خسرنا أوفق ميدان قتال لنا .

ــ لن يؤثر هذا فى شجاعة جنودنا الفائقة ...

وفكر الملك مليا ثم قال لقائد جيوشه :

ــ ينبغى أن نخلى أبيدوس ورفا وتنثيرا اخلاء تاما .

فبدا التساؤل على وجه بيبى فقال الملك :

ــ لن ندافع عن هذه المدن .

فأدرك بيبى ما يعنيه مولاه .

ــ أيريد مولاى أن يلقى العدو فى وادى كبتوس ؟

ـ هذا ما أريده ، فهنالك تمكن مهاجمة العـدو من عدة جهات . وتوجد فى أنحاء الوادى حصون طبيعية ، وسأترك له فى المدن التى نخليها عصابات تكر عليه دون أن تشتبك معه فى قتال فتعطل تقدمه حتى تقوى مراكزنا ، هيا يا بيبى ابعث برسلك الى المدن ليخلوها، ومر القواد بالتقهقـر فى الحال ، ولا تضع وقتا فان حبـل الأرجوحة التى يترجح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه فى يد أبو فيس ...

## ٩

وصاح المنادى فى أهالى ابيدوس وبرفا وتنثيرا أن احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا الى الجنوب ، فقد أمست دياركم ميدان قتـال لا يعرف الرحمة ، وكان القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم ، فتولاهم الخوف وبادروا الى أموالهم وامتعتهم يكدسون بها العربات تجرها الثيران ، والى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجل ، ولموا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنما تقطع أوصالهم من الحزن والأسف ، وكان كلما تقدم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة الى الوراء تنازعهم قلوبهم الى أوطانهم ، ثم تفزعهم المخاوف فيجدون سراعا الى المجاهل التى تنتظرهم . ومروا فى طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم فى صدورهم وداعب أحـلامهم الأليمة أمل ، وافترت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمعت فى جو أحزانهم كما تضىء أشـعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة فى يوم أدكن السماء ، ولوحوا بأيديهم وصاح بهم الكثيرون « أراضينا وديعة مسلوبة ... ردوها الينا أيها البواسل ... » .

وكان فرعون فى تلك الأثنـاء يشرف على توزيع قـواته فى وادى كبتوس ويرمق بعينين حزينتين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع

تيارهم المتدفق ، وكان يشاركهم آلامهم كأنه واحد منهم ، ويضاعف في أله ما يحمله الهواء الى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له .

وكان القائد بيبى على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقى الأخبار منهم ثم يرفعها الى مولاه ، فبلغه هجوم العدو على ابيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت على آخر رجل منهم . وغداة اليوم التالى حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال به الرجال المدافعون عنها من فنون الدفاع والمشاكسة لكى يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة ، أما تنثيرا فقد ثبتت حاميتها للعدو الزاحف ساعات طوالا حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشا كامل العدد والعدة ، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفا وسبعين ، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة ، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع ، لأنه لم يكن هو — ولا أحد من جيشه — يتوقع أن يملك جيش أبوفيس هذا العدد الضخم من العجلات ، وقال لقائده :

— كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات ؟ ...

وكان بيبى فى حيرة من أمره ، وكان يلقى على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه :

— ستنهض فرقة القسى بواجبها يا مولاى .

فهز الملك رأسه دهشة وقال :

— لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة ، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها ؟ ..

— والمؤلم يا مولاى أن تكون الأيدى التى صنعتها مصرية ...

— حقا انه لمؤلم ... ولكن هل تنفع القسى فى مقاومة سيل من العجلات ؟

ــ ان جنودنا يا مولاى لايخطئونَ أهدافهم ، وسيرى أبوفيس غداً أن الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته ...

وفى ذلك المساء خلا فرعون الى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض ، وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعا اليه أن يشرح صدره ، ويثبت قلبه ، ويكتب له ولجيشه النصر .

وأحس الجميع دنو العدو فضاعفوا من يقظتهم ، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم فى معركة الموت .

## ١٠

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير ، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسى أماكنهم الحصينة فى الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات ، ووقف سيكننرع أمام خيمته مع قائده بيبى وسط هالة من رجال حرسه الأشداء ، وكان يقول لهم : «ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها . ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رماتنا المحصـــنين على اصابة فرسان العدو وجياده ، وليس من شك فى أن أبوفيس سيبدأ هجومه بالعجلات ، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقى حتى يفصـــل فى معركة العجلات ، فليكن همنا موجها الى اصابة عجلات الرعاة بالعجز ، حتى نمكن لفرق جيشنا التى لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا » .

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذى يهيم به ، وكان يدعو ربه آمون فى صدق ورجاء قائلا : « أيها الرب المعبود ، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة .. وانصر أبناءك المؤمنين ، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك فى مثواك المكرم ، وتغلق أبواب معبدك المطهر ... »

وركب الملك عجلته ، وفعل القائد بيبى مثله ، وأحاط بهما الحرس

الفرعونى ، ووقف خلفهما مائة عَجلة حربية ، ثم تقدمت فرقة الرماح ورصت صفوفها الى يمين الملك والى شماله ، وكان الجميع ينتظر أن يدعى الى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التى تؤيدها بواجبها الأول .

وحين أخذت تبدو بشائر النور ، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول الرعاة فى معركة حامية شمال كبتوس ، فقال الملك لقائد جيشه :

ـ ان أبوفيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة ، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من انزال جنود وراء مواقعنا .

فقال القائد بيبى : « ان الرعاة يا مولاى لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن ، وسيبتلع النيل المقدس جثث جنودهم ، ويبتلع أمل أبوفيس فى حصارنا » .

كانت ثقة سيكننرع فى رجال أسطول طيبة عظيمة ، ولكنه أوصى قائد الكشـــافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحـــرية . وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر ، والميدان يتجلى للأعين الفاحصة ، فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسى فى أيديهم ، والعجلات المعدودة تتحفز الى جانبهم للقتال ، ورأى فى الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر . وكان العدو ينتظر سفور الصبح ، فما عتمت أن تحركت قوات العجلات استعدادا للمعركة ، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأماميـــة ، فتطايرت السهام وصهلت الخيـــل وصرخ المتقاتلون ، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض العجلات المصرية فى قتال عنيف ، فصاح سيكننرع :

ـ الآن تبدأ معركة طيبة .

فقال بيبى بصوت قوى النبرات :

ـ نعم يا مولاى ، وقد بدأ جنودنا بدءا حسنا .

وصوبت الأبصار جميعا الى الميدان تشاهد سير المعـــركة ، فرأوا

عجلات الرعاة تهاجم صفا ثم تتفرق جماعات شتى ، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة ، وتنقض على ما يتعرض لها من العجلات المصرية ، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعا فى استبسال وشجاعة ، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم ، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، حتى صاح بيبى قائلا :

ــ لو دام القتال على هذا النحو ، فسنتفوق على فرقة العجلات فى أيام قلائل .

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل ، ثم ترتد الى معسكرها وتنقض غيرها كى لا تنهك قواها ، على حين كان المصريون يدافعون دون سكون أو راحة وهم ثابتون فى مراكزهم ، وكان سيكننرع كلما رأى فارسا من فرسانه يسقط ، أو عجلة من عجلاته تتعطل ، يصيح غاضبا : وا أسفا ، ويدرك أتم ادراك ما ينزل بجيشه من الخسارة . وأخذ عدد الوحدات التى يهجم بها الرعاة يتضاعف ، كانوا يهجمون ثلاثا ثلاثا ، ثم هجموا ستا ستا ، ثم عشرا عشرا . واشتد القتال وحمى وطيسه ، واطرد عدد عجلات الهكسوس فى الزيادة ، حتى ساور سيكننرع القلق ، وقال لبيبى :

ــ لابد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد الى الميدان اتزانه .

ــ ولكن يا مولاى ينبغى الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة .

ــ ألا ترى أن العدو يكر علينا كل فترة يسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال ؟...

ــ انى أدرك الخطة يا مولاى ، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا ..

فصر الملك بأسنانه وقال :

ــ لم نكن نتوقع قط أن تكون له هذه الغلبة فى العجلات ،

ومهما يكن فلا يمكنني أن أترك الرماة بلا نجدة ، فليس فى جيشى رماة سواهم ..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة فى خمس وحدات ، فانقضت كالنسور الكواسر ، وبعثت فى الميدان حياة جديدة ، ولكن أبو فيس أراد أن يرد على حملة سيكننرع الجديدة ردا قاسيا ، فأرسل الى الميدان عشرين وحدة قوام كل واحدة خمس عجلات ، فزلزلت الأرض بصلصلتها ، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر . واستطارت المعركة وجرت الدماء كالأنهر .. وتقدم الوقت وهى لا تهدأ أو تخف وطأتها حتى توسطت الشمس كبد السماء . وجاء بعد ذاك بعض رجال الكشافة وآذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد فى الأسر سفينتين ، وغرقت له سفينة أخرى ، فجاء نبأ النصر فى وقته ليشد من عزيمة المصريين ويثبت قلوبهم . وأذاعه الضباط فى الفرق المقاتلة والتى تنتظر أن يجىء دورها فى الكفاح ، فكان له صدى فرح فى الصدور ، وفورة حماس فى القلوب . ولكن صك ذاك الخبر آذان أبو فيس كذلك فاستولى عليه الغضب ، وغير خطته البطيئة فى الحال ، وأصدر أمره الى قوة العجلات بالهجوم والانتقام .. ورأى سيكننرع سيلا عرما فى العجلات ينقض على رماته البواسل من كل مكان ، وينشب فيهم أظافره الحادة . وارتاع الملك أيما ارتياع ، وصاح قائلا بغضب شديد :

— ان قواتنا التى نهكها النضال الدائم ، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات ...

ثم التفت الى قائد جيشه ، وقال بعزم واصرار :

— سنخوض معركة فاصلة بالقوات التى بين أيدينا ، فمر ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم ، وبلغهم رجائى أن يقوم كل بواجبه جنديا من جنود طيبة الخالدة ...

وكان سيكننرع يدرك الهول الذى ينتظره وجيشه ، ولكنه كان

رجلا باسلا عظيم الايمان ، فلم يتردد لحظة ونظر الى السماء وقال بصوت صافى النبرات : « أيها الرب آمون لا تنس أبناءك المخلصين » . ثم أصدر أمره الى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم ، واندفع أمامها ليلقى عدوه ...

وبدت معركة من أشد المعارك هولا ، علا فيها الصراخ والصهيل ، وتطايرت الخوذ ، وتساقطت الرءوس ، وجرت الدماء ، ولكن لم تجد بسالة المصريين شيئا فى مقاومة العجلات السريعة المدرعة ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، وحصدتهم حصدا كالهشيم . وقاتل سيكننرع قتالا مجيدا غير يائس ولا متخاذل ، وبدا ساعة كأنه رب الموت يختار له من يشاء من عدوه . واستمرت المعركة حتى الأصيل ، وهناك بدت الغلبة فى صف الرعاة ، فتحفزوا ليضربوا الضربة القاضية ، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوة عظيمة ، يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض ، على عجلة سيكننرع ، وشقت اليه الصفوف ببسالة خارقة . وأدرك الملك غرض الفارس الجسور ، فهرع نحوه حتى تواجها ، ثم تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما ، فتلقى كل منهما الضربة الموجهة اليه بترسه وتحفز للقتال . ورأى سيكننرع غريمه يسل سيفه ، فعلم أنه لم يقنع بتجربة حظه ، فسل سيفه واندفع نحوه ، وفى تلك اللحظة الراهبة استقر سهم فى ساعده ، فارتعشت يده وسقط منها السيف ... وصاح كثير من حرس الملك : « حذار يا مولانا ... حذار » ولكن الغريم كان أسرع اليه من الحذر ، فوجه الى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوته ، فأصابت هدفها ، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم ، وتوقف مقهورا عن المقاومة. فقبض عدوه بيمناه على رمح ورشقه بقوة ، فاستقر فى جانب الملك الأيسر ، وترنح على أثره ذاهلا وسقط على الأرض.. وتعالى الصياح من كل جانب ، فقال المصريون : « رباه ... لقد سقط الملك... دافعوا عن مليككم .. » وصاح قائد العدو وهو يبتسم ابتسامة الظافر :

« أجهزوا على المتمرد العاصى ، ولا تبقوا على أحد من رجاله » .
فاشتد القتال حول جسد الملك الملقى ، وانقض عليه فارس حقود ، ورفع بلطة حادة ، وهوى بها على رأسه ، فأطاح عنه تاج مصر المزدوج ، وتفجر الدم منه كالينبوع ، وثنى بضربة أخرى فوق العين اليمنى ، فحطمت العظام وتناثر المخ فى حالة بشعة . وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم ، فتكالبوا على الجثة ووجهوا اليها طعنات مجنونة قاسية ، أصابت العينين والفم والأنف والخدين والصدر ، فمزقت الجثة وأغرقتها فى بحر من الدماء ...

وكان بيبى يقاتل على رأس من بقى من جنوده ، مدافعا قوات العدو المتدفقة عن البقعة التى سقط فيها مولاه . واستيأس القوم فى القتال ، وهانت عليهم الحياة ، وعزموا جميعا على الاستشهاد فى المكان الذى ارتوى بدماء مليكهم الباسل ، فما زالوا يسقطون رجلا أثر رجل حتى أدركهم المساء ، ولبس الكون الحداد ، فكف الفريقان عن القتال ، وقد نهكهم التعب وأثخنتهم الجراح ..

## ١١

وخرج جنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم ، وكان القائد بيبى واقفا الى جوار عجلته بعد أن نال الاعياء منه كل منال ، يتجه قلبه الى الجثة التى خضبت دماؤها الزكية الميدان ، فسمع صوت قائد يقول :

ـــ يا للعجب .. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة .. من يصدق أننا فقدنا جل قوتنا فى نهار واحد .. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء ..؟!

فقال له صوت آخر كان من الاعياء

ـ انها العجلات التى لا تقاوم .. لقد حطمت آمال طيبة جميعا ..

فناداهم القائد بيبى قائلا :

ـ أيها الجنود .. هل أديتم ما عليكم نحو جثـة سيكننرع ؟... هلموا نبحث عنها بين الجثث ..

فسرت القشعريرة فى نفوسهم المتهالكة ، وأخذ كل منهم مشعلا وتبعوا بيبى صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق ، وتفرقوا فى البقعة التى سـقط فيهـا الملك ، تصـك آذانهم أنات الجرحى وهذيان المحمومين . وكان بيبى لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم ، ولا يكاد يصدق أنه يبحث حقا عن جثة سيكننرع ، ويكبر عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة ، وكان يقول والدموع تطفر من عينيه : « اشهدى يا أرض كبتوس واعجبى .. اننا نبحث عن جثة سيكننرع بين كثبانك .. ألا رفقا بها ، ولتكونى فراشا وثيرا لأضلعها المصابة ، ألم تسقط فداء لك ولأرض طيبة ؟.. واها يا سـيدى .. من لطيبة بعدك ؟.. من لنا غيرك ؟.. » وظل فى حيرته قليـلا ثم سمع صوتا يصيح قائلا : « أيها الرفاق تعالوا .. هاكم جثة مولانا » . فجرى صوبه والمشعل فى يده ، فزعة عيناه من الهول الذى ستراه ، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية ، امتزج فيها الألم بالغضب . رأى ملك طيبة كتلة مشـوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى الى جانبـه ، فصاح غاضبا : « يا للغربان الدنية ... لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد الهصور ، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر ، فقد حييت كما ينبغى للملك من ملوك طيبة أن يحيا ، ومت ميتة البطل الباسل..» وصاح فيمن حوله ممن أذهلهم الحزن : « أحضروا الهودج الملكى.. هيا يا نيام » . وأتى بعض الضباط بالهودج ، واشتركوا جميعا فى رفع الجثة ووضعوها عليه ، ورفع بيبى تاج مصر المزدوج ووضعه الى جانب رأس الملك ، ثم سجى الجثة ، وحملوا الهودج فى صمت

أليم ، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح ، ووضعوه فى الخيمة التى فقدت حاميها وسيدها الى الأبد ... وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسى الأذقان ، ترهقهم كآبة ، ويغشى أبصارهم حزن عميق ، فالتفت اليهم بيبى وقال بصوت قوى النبرات :

ــ أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن ، فليس الحزن بمعيد سيكننرع الينا ، ولعله ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذى قتل من أجله . لقد وقعت الواقعة ، ولكن المأساة لم تتم فصولها ، فينبغى أن نثبت فى مراكزنا حتى نؤدى واجبنا كاملا..

فرفع الرجال رءوسهم ، وأصروا بأسنانهم صرير العزم والقوة ، ونظروا الى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت ، فقال بيبى :

ــ ان الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه ، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة ، ولكن واجبنا لم ينته بعد ، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة ، كما كنا أهلا للحياة الشريفة.

فصاحوا جميعا قائلين :

ــ لقد ضرب لنا مليكنا المثل الأعلى ، وسوف نتبع أثره .

فتهلل وجه بيبى وقال بسرور :

ــ حييتم من جنود بواسل ، والآن أصغوا الى : لم يبق من جيشنا الا أقله ، ولكنا سنخوض المعركة غدا على رءوسهم حتى آخر رجل ، وسيكون من جراء قتالنا أن نعوق تقدم أبوفيس حتى تتهيأ فرص النجاة لأسرة سيكننرع . فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة ، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهى ، وان سكتت فى الميادين الى حين . سأفارقكم بعض يوم لأؤدى واجبى نحو هذه الجثة ونحو ذريتها الباسلة ، ثم أعود اليكم قبل مطلع الفجر ، لنموت معا فى ميدان القتال .

وطلب منهم أن يصلوا جميعا أمام جثـة سيكننرع ، فجثوا وجثا واستغرقوا فى صلاة حارة ، وختم بيبى صلاته قائلا :

ـ أيها الرب الرحيم ، تغمـد مليكنا الباسل برحمتـك فى جوار أوزوريس ، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته ، كى نلقاه فى العالم الغربى بوجوه لا يخزيها لقاؤه .

ثم نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج الى السفينة الفرعونية ، والتفت نحو رفاقه وقال : « أستودعكم الرب والى اللقاء القريب » .

وسار خلف الهودج حتى وضعوه فى المقصورة ، ثم قال لهم :

ـ حين تبلغ بكم السفينة طيبة ، سيروا به الى معبد آمون ، وضعوه فى البهو المقدس ، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتى أوافيكم .

وعاد القائد الى عجلته ، وأمر السائق بالمسير الى طيبة ، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهبا ..

***

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم ، تحت ستار الظلام الذى يغشى معابدها ومسلاتها وقصورها ، فى غفلة عما يقع خارج أسـوارها من الأحداث الجسام . فاتخذ سبيله رأسا الى القصر الفرعونى ، وأعان الحراس حضـوره ، فجاءه رئيس الحجاب على عجل ، ورد تحيته ، وسأله بقلق :

ـ ماذا وراءك أيها القائد ؟ .

فقال بيبى بلهجة دلت على الجزع :

ـ ستعلم كل شىء فى حينه أيها الحاجب الأكبر ، والآن استأذن لى فى المثول بين يدى ولى العهد ...

فغادر الحاجب الحجـرة غير مرتاح البال ، ثم عاد بعـد زمن قصير وهو يقول : « ان صاحب السمو ينتظرك فى جناحه الخاص » . فمضى

القائد الى جناح ولى العهد وأدخل عليه فى بهو الاستقبال ، وسجد بين يديه ، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقعة الأمير . فلما رفع بيبى رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب ، وعينيه الذابلتين ، وشفتيه المتقعتين ، ساوره القلق ، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلا :

ــ ماذا وراءك أيها القائد بيبى ؟ ... فلا بد من أمر جلل دعاك الى مفارقة الميدان فى هذا الوقت ؟ ..

فقال القائد بصوت دلت لهجته على الحزن والكآبة :

ــ مولاى ، ما تزال الآلهة ــ لأمر تخفى على حكمته ــ غاضبة على مصر وأهلها ... !

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق ، وأدرك ما يدل عليه من الأخبار المحزنة ، فتساءل فى قلق وجزع :

ــ هل أصيب جيشنا بكارثة ؟ .. هل يطلب والدى مددا ؟ .

فأطرق بيبى وقال بصوت خافت :

ــ وا أسفاه يا مولاى ، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب .

ففزع الأمير كاموس قائما ، وصاح به :

ــ هل أصيب والدى حقا ؟ .

فقال بيبى بصوته الثقيل الحزين :

ــ سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة ، وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجل أسرتكم العظيمة .

فقال كاموس وهو يرفع رأسه :

ــ رباه ... كيف تمكن لعدوك من ابنك المخلص ... رباه ما هذه الكارثة التى تنزل بمصر ... ولكن ما جدوى التشكى ؟ ليس هذا وقت البكاء . لقد سقط والدى فينبغى أن أحل محله ... صبرا أيها القائد بيبى حتى أعود اليك فى لباسى الحربى .

ولكن القائد بيبى قال بسرعة :

ـ لم أجيء الى هنا يا مولاى لأدعوك الى القتال ، لقد قضى ا ـ ـ وا أسفاه ...

فحدجه بنظرة حادة قاسية ، وسأله :

ـ ماذا تعنى ؟ .

ـ لا فائدة ترجى من القتال ...

ـ هل قضى على جيشنا الباسل ؟ ..

فأطرق بيبى وقال بحزن شديد :

ـ خسرنا المعركة الفاصلة التى كنا نرجو أن نحرر بها مصر ، وتحطمت قوة جيشنا الأساسية ، ولن ترجى فائدة حقة من القتال ، ولن نقاتل الا كى نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتا للنجاة ..

ـ أتريد أن نقاتل حتى نفر فرار الجبنـــاء ، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو ؟ ...

ـ بل فرار الحكماء الذين يقدرون العواقب وينظرون الى المستقبل البعيد ، ويسلمون بالهزيمة اذا وقعت ، ثم ينسحبون من الميدان الى حين ، ثم لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوهم عودا على بدء ... مولاى تفضل وادع ملكات مصر ، وليكن الأمر شـــورى . . .

ودعا الأمير كاموس حاجبـــا ، وأرسله فى طلب الملكات ، ومضى يتمشى جيئة وذهابا يتناوبه الحزن والغضب ، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة ، وجاءت الملكات : توتيشيرى وأحوتبى فستكيموس مسرعات ، وحين وقعت أبصارهن على القائد بيبى وقد انحنى لهن تحية ، ورأين الكدر مرتسما على وجه كاموس بالرغم من تظـــاهره بالهدوء ، شعرن بخوف واضطراب ، وزاغت أبصارهن ، وكان كاموس جزعا فدعاهن الى الجلوس ، وقال :

ـ سيداتى .. دعوتكن لأقص عليكن أنباء أسيفة ..

وتريث لحظة كي لا يفاجئهن ، ولكنهن فزعن ، وقالت توتيشيرى بقلق :

ـ ماذا وراءك أيها القائد ببي ؟ .. كيف حال مولانا سيكننرع ؟..

فقال كاموس بصوت متهدج :

ـ جدتاه ... ان قلبك لذكى الشعور ، صادق الحدس ... فليثبت الله قلوبكن ، ويعنكن على تحمل الخبر الفاجع . . . لقد قتل أبى سيكننرع فى الميدان ، وخسرنا المعركة ...

وعطف رأسه عنهن حتى لا يرى آلامهن ، وقال وكأنه يحادث نفسه المكلومة :

ـ قتل أبى وهزمت جيوشنا ، وقضى على قومنا أن يعانوا الآلام جميعا ، من أدنى الجنوب الى أقصى الشمال ...

ولم تتمالك توتيشيرى فزفرت زفرة حرى كأنما مجت بها فتات كبدها ، ووضعت يدها على قلبها وهى تقول :

ـ ما أشد جرح هذا القلب العجوز ...

أما أحوتبى وستكيموس فقد ثقل رأساهما ، ووكفت أعينهما دمعا ساخنا ، ولولا وجود القائد بينهم لانتحبتا انتحابا عاليا .

ووقف ببى وسط ذاك الحزن الشامل صامتا ، مجروح الصدر ، مضعضع الحواس جميعا ، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى ، وخشى أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال :

ـ يا ملكات أسرة مولاي كاموس ، تجلدن وتصبرن ، فانه وان كان الخطب أكبر من العزاء ، فان الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن . أستحلفكن بذكرى مولاى الشهيد أن تكفكفن دموعكن ، وتتواصين بالصبر ، وتحزمن أمتعتكن ، فليست طيبة بالمثوى الأمين غدا . . .

فسألته توتيشيرى قائلة :

ـ وجثة سيكننرع ؟

ـ فلتطمئن نفسك يا مولاتى ، سأؤدى واجبى نحوها كاملا ...

فسألته مرة أخرى :

ـ والى أين تريد أن نذهب ؟

ـ مولاتى ، ستقع مملكة طيبة بين يدى الغزاة الى حين ، ولكن لنا وطن آخر أمين فى بلاد النوبة ، ولن يطمع الرعاة فى النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشق على نفوسهم المترفة ، فلتكن لكم مهجرا آمنا ، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا . وهنالك يعاودكم التفكير فى هدوء ، فترعون أمل المستقبل الجديد ، وتتعهدونه بالصبر والبسالة ، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس ..

وكان كاموس يصغى اليه فى هدوء وسكينة ، فقال له :

ـ فلتهاجر الأسرة الى بلاد النوبة ، أما أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشى أقاسمه حظه فى الحياة أو الموت .

فساور القلق القائد ، ونظر الى مولاه بعين رجاء وتوسل ، وقال :

ـ مولاى ، لن أستطيع أن أثنيك عن ارادة تريدها ، فلأكل الأمر الى حكمتك ، ولا أسألك الا أن تصغى الى قليلا ...

مولاى ، ان القتال اليوم عبث ضائع ، ومعناه الهلاك المبين . ومصر لن تنتفع بموتك ، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامهـا ، ولكنها بغير شك تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض ... ان كل أمل فى النجاة منوط بحياتك ، فلا تحـرم مصر الأمل بعد أن حرمت السـعادة ... فاجعلوا « نباتا » هدفكم ، وشدوا اليها الرحال ، وهنالك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير واعداد وسائل الدفاع والكفاح . ولن تنتهى هذه الحرب كما يتمنى أبوفيس ، فلا يتسنى لشعب كشعبنا عاش سيدا كريما ، أن يطرق على الذل طويلا . ولسوف تحرر طيبة يا مولاى فى تاريخ قريب ، ولن تقف بك الحماسة عند حد ، فتطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك ... ان سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعينى فى

ظلمات الحاضر الكئيب ، فلا تتردد واعزم عزمة الحكمة . والآن وقد بينت لك نهج الحق ، فاقض بما أنت قاض ...

وكف بيبى عن الكلام ، وما كفت عيناه عن التوسل والرجاء ، وتحولت توتيشيرى الى كاموس ، وقالت بصوت خافت :

ـ لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله .

فأحس القائد اليائس بندى الأمل ، وانتعش فؤاده بالفرح ، ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة ، فقال بيبى وكان يكذب أول مرة فى حياته :

ـ أما أنا يامولاى فسألحق بكم بعد حين .. فأمامى واجبان مقدسان : أن أعنى بجثة مولاى ، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة ، لعلها بالمقاومة الناجحة تساوم على التسليم بأحسن الشروط ...

ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء ، وغلب التأثر بيبى فقال :

ـ ينبغى أن نواجه محنتنا بشجاعة ، وليكن لنا فى سيكننرع أسوة حسنة ، ولتذكر دائما يامولاى أن العجلات الحربية هى سبب هزيمتنا ، فاذا كررت يوما على العدو ، فلتكن العجلات عتادك : والآن سأذهب لأدعو العبيد الى حمل الثمين الغالى من ذهب القصر وسلاحه ، مما لا غنى عنه ...

نطق القائد بيبى بهذه الكلمات ، ثم ذهب ...

## ١٢

وانبعثت فى القصر حركة نشاط شاملة ، وأضيئت حجراته جميعا ، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة ، ويذهبون بها الى السفينة الفرعونية فى سكون محزن ، تحت رقابة رئيس الحجاب . وكانت الأسرة الفرعونية فى أثناء ذلك تنتظر فى حجرة الملك كاموس ، تشملها الكآبة والصمت ، ينكس أفرادها النبلاء

رءوسهم ، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن . ولبثوا على حالهم مالبثوا ، حتى دخل عليهم الحاجب حور ، وقال بصوت خافت : « انتهى كل شيء يا مولاى » .

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق ، فخفقت قلوبهم ، ورفعوا وجوههم ذاهلين ، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد . أحقا انتهى كل شيء ... وهل أزفت ساعة الوداع ؟ ... أهذا آخر العهد بالقصر الفرعونى ، وطيبة المجيدة ، ومصر الخالدة ؟ ... وهل يحرم عليهم غدا أن يروا مسلة أمنمحعت ، ومعبد آمون ، والسور ذا الأبواب المائة ؟ ... أتضيق بهم طيبة اليوم ، وتفتح أبوابها غدا لأبوفيس يعتلى عرشها ويتحكم فى الرقاب ؟... كيف يغدو الهداة ضالين ، والسادة فارين ، وأصحاب الدار مهاجرين ؟ .

ورآهم كاموس لا يتحركون ، فقام فى تثاقل وتمتم قائلا بصوت خافت : « هلموا تودع حجرة أبى » . فقاموا قومته ، وسارت الأسرة فى خطى ثقيلة متخاذلة الى حجرة الملك الراحل ، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون اذن ، ولا كيف يلقونها مهجورة . وتقدم حور خطوة وفتح الباب ، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة ، وعلقت أبصارهم فى رفق وحنان بالديوان العظيم ، والمقاعد الوثيرة ، والمناضد الأنيقة ، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك ، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيا أمام الرب آمون ، فخالوه جميعا جالسا على ديوانه ، متكئا على وسادته ، يبسم اليهم ابتسامته الحلوة ، ويدعوهم الى الجلوس . وأحسوا جميعا روحه تغمرهم وتطوف بهم ، فحلقت أرواحهم الحزينة فى سماء الذكريات ، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة ، اختلطت آثارها بتنهدهم العميق ودمعهم المسيل ...

ثم تنبه كاموس الى القلوب المنصهرة من حوله ، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها باجلال ، ولثم جبينها ، وتنحى جانبا . فتقدمت

توتيشيرى ومالت على الصورة الحبيبـــة ، وقبلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الثاكل المحزون . وودعت الأسرة جميعا صورة ربها المفقود ، ثم مضوا الى الخارج فى صمت حزين كما دخلوا ...

ورأى كاموس الحاجب حور فى انتظارهم ، فسأله قائلا :

ــ وأنت يا حور ؟...

ــ ان واجبى يا مولاى أن أتبعكم كالكلب الأمين ...

فوضع الملك يده على كتفه شاكرا ، وتقدموا جميعا فى الردهات ذات الأعمدة يسير بين أيديهم القائد بيبى ، ومشى كاموس فى طليعة أسرته ، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونيفرتارى ، فتوتيشيرى ، فالملكة أحوتبى ، ثم الملكة ستكيموس ، ويتبع الجميع الحاجب حور. وهبطوا الأدراج الى ممر الأعمدة ، واتجهوا الى الحديقة ، فسايرهم على الجانبين عبيد يحملون المشـــاعل ويضيئون لهم السبيل ، فبلغوا السفينة ، وانتقلوا اليها واحدا اثر واحد حتى شملتهم جميعا . وحم الفراق ، فألقوا نظرة الوداع ، وتاهت أعينهم فى الظلام المخيم على طيبـــة كأنه يلفهـــا فى ثوب حداد ، فتقطعت قلوبهم ، وتصـــدعت صـــدورهم ، وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة ، وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا فى الظلام . ووقف بيبى بين أيديهم لا ينبس بكلمة ، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين ، حتى تنبه الملك لوجوده ، فتنهد وقال له :

ــ أزفت ساعة الوداع .

فقال بيبى بصوت متهدج حزين ، وهو يغـــالب عواطفه مغالبة شديدة :

ــ مولاى ، وددت لو أدركنى الموت قبل أن أقف موقفى هذا ، فليكن عزائى أنكم تسيرون فى سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة . وأرى أن ساعة الوداع قد أزفت حقا كما تقول يا مولاى ، فسيروا يحفظكم الرب برحمته ، ويكلأكم بعين رعايته . وانى أرجو أن تمتد

بى العمر حتى أشـهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم ، كى يسعد قلبى برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى ... الوداع يا مولاى ... الوداع يا مولاى ...

— بل قل الى الملتقى ...

— نعم الى الملتقى يا مولاى ...

واقترب من مولاه وقبـل يده ، وكان ما يزال يغالب عواطفه كى لا يبل يدا كريمة بدمعه . وقبـل يد توتيشيرى ، والملكة أحوتبى ، والملـكة ستكيموس ، وولى العهـد أحمس ، وشـقيقته الأميرة نيفرتارى ، ثم شـد على يد الحاجب حور بمودة ، وأحنى رأسـه للجميع ، وغادر السفينة فى سكون وذهول ...

وعلى أدراج الحديقـة وقف يشـاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف فى الماء ، وأخذت تبتعد عن الشاطىء على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها ، وقد تجمعوا على حائطها ، تودع أرواحهم الخافقة طيبة .. وأفلت منه زمام نفسه فبكى .. واستسلم للبكاء حتى انتفض جسمه.. وما زال يتبع السفينة العزيزة وهى تغوص فى الظلمة حتى ابتلعها الليـل .. ثم تنهد من أعماق صدره ، ولبث على حاله لا يدرى كيف يبرح الشاطىء ، وقد أحس وحشة كأنه هوى حيـا الى قبر عميق . ثم تحول عن موقفـه ببطء وعاد الى القصر بخطى بطيئة متثاقلة ، وكان يتمتم قائلا : مولاى .. مولاى .. أين أنت ؟. أين أنتم يا سـادتى ؟. أين أنتم يا حماة طيبة ؟. أتقع هذه الأحداث ولا تثور الزلازل ؟ يا أهل طيبة ، كيف تهجعون والموت يحلق فوق رقابكم ؟. هبوا .. لقد قتـل سيكننرع وهاجرت أسرته الى أقصى الأرض وأنتم نيـام .. هبوا .. لقد خلا القصر من سادته .. وودع طيبة ملوكها .. وسيعتلى عرشكم غدا عدو لكم .. كيف تنامون ؟. هبوا .. ان الذل وراء الأسوار ..

ثم أخذ القـائد مشعلا ، وسـار فى ردهات القصر حزينا واجما

يتنقل من جناح الى جناح ، فوجد نفسه أمام بهو العرش ، واتجه نحوه واجتاز عتبته وهو يقول : « معذرة يا مولاى عن دخولى دون اذن » وتقدم بخطى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفى المقاعد التى كانت تعقد عليها الأمور وتبرم ، الى أن انتهى الى عرش طيبة ، وجثا على ركبتيه ، ثم سجد وقبل الأرض بين يديه ، ثم وقف أمامه حزينا ، وضوء المشعل يعكس على وجهه أحمر مرتعشا ، وقال بصوت جهير :

— حقا لقد انطوت صفحة جميلة خالدة ، وسنكون نحن الموتى غدا أسعد أهل هذا الوادى الذى لم يعرف الذل أبدا . أيها العرش .. يحزننى أن أبلغك أن صاحبك لن يعود اليك ، وأن وريثك مضى الى بلد بعيد ، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحى الكلمات التى تشقى مصر غدا ، فلن يجلس عليك أبوفيس ، ولتطو كما انطوى سيدك ..

وكان بيبى قد اعتزم أن يدعو جنودا من حرس القصر ، ليحملوا العرش الى حيث يريد ..

## ١٣

وحمل الجنود العرش كما أمروا ، ووضعوه على عربة كبيرة . وتقدمهم القائد الى معبد آمون ، وهناك حملوا العرش مرة أخرى ، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة الى البهو المقدس . وفى المثوى المقدس ، قريبا من قدس الأقداس ، رأوا الهودج الفرعونى محاطا بالجنود والكهنة ، فوضعوا العرش الى جانبه ، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئا . وأمر بيبى الجنود بالانصراف ، وطلب حضور الكاهن الأكبر ، وغاب الكاهن زمنا يسيرا ، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذى قدر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعا ، ومد يده للقائد وهو يقول بصوته الهادىء :

ـ طاب مساؤك أيها القائد .

فقال بيبى بلهجة دلت على الاهتمام والجزع :

ـ وطابت لياليك يا صاحب القداسة ... هل تأذن لى بالانفراد بقداستك ؟

وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعا على تطلعهم وقلقهم حتى خلا المكان ، وتنبه الكاهن الأكبر للهودج والعربة ، فبدا الانزعاج على وجهه ، وقال للقائد :

ـ ما الذى أتى بالعربة الى هنـا ؟.. وما هذا الهودج ؟.. وكيف تركت الميدان فى هذه الساعة من الليل ؟..

فقال بيبى :

ـ أصغ الى يا صاحب القداسة ، فما من فائدة ترجى من التأنى ، أو من تهوين شأن ما نحن فيـه . ولكن ينبغى الاصـغاء الى حتى النهاية لأفضى الى قداسـتكم بما عندى ، وأمضى الى واجبى . لقد وقعت واقعة سـتذكر الى الأبد ، مصحوبة بالألم والفخـار معا ، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر ، وقتـل مليكنا وهو يدافع عن وطنه ، ومزقت الأيدى الغادرة جثته الطاهرة ، واضطرت أسرتنـا الملكية الى هجر طيبة . وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرا لملوكهم ولا لمجدهم ...

مهلا يا صاحب القداسـة مهلا .. لقد انتصف الليـل أو كاد ، وواجبى يهيب بى أن أعجل .. ان هذا الهودج يحمل جثـة مليكنا سيكننرع وتاجه ، واليك عرشه . هذا تراثنا القومى أعهد به اليك يا كاهن آمون ، لكى تحفظ الجثـة وتودعها مكانا أمينا ، وتحفظ هذه المخلفات فى مستقر حريز ... والآن أسـتودعك الرب يا كاهن طيبة ، التى لن تموت وان أثخنتها الجراح .

وكان الكاهن قد هم أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه ، ولكن القائد لم يمكنه ، فصمت صمتا ثقيلا ، وجمد جمودا مطلقا ، فكأنه

فقد حواسه جميعا . وأدرك ببيى ما يعانيه الرجل من الذهول والألم ، فقـــال :

ــ انى أستودعك الرب يا صاحب القداســة ، مطمئنا الى أنك ستقوم بواجبك كاملا نحو هذه المخلفات العزيزة المقدسة .

وتحول القائد عنه الى الهودج ، وانحنى اجلالا حتى لثم غطاءه ، وأدى له التحية العسكرية ، ثم تقهقر الى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه ، حتى بلغ السلم المؤدى الى بهو الأعمدة ، فأدار ظهره وسار مسرعا لا يلوى على شيء الى خارج المعبد ، وشعر بأنه قد آن له أن يلحق بضـــباطه وجنوده ، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدهم .

على أن استغراقه فى واجباته لم ينسه أمرا ما تخايل لذاكرته حتى أحس له غمزا على قلبه لا يسكن . ذكر أسرته : ابانا زوجه وابنـــه الصغير أحمس ، وأهله جميعا الذين تضمهم مزرعته فى ضواحى طيبة . ما أطول السفر .. انه لا يستطيع قطع الطريق الى مزرعته فى الليل ، ولو فعل ما استطاع أن يفى بعهده لجنوده ولظنوه هاربا .. فسيلقى حتفه دون أن يلقى نظـــرة وداع على وجه ابانا وأحمس .. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا ، وكان يتساءل محزونا هل يترك الرعاة صاحب أرض فى أرضه ، أو صاحب مال لمـــاله ؟.. سيشرد السادة غدا أو يقتلون فى ديارهم ، وستغدو ابانا وأحمس بلا نصير.. وضاق صدر الرجل ، ونازعه قلبه طويلا الى بيته وآله ، ولكن قلبه كان فى سبيل ، وارادته الحديدية فى سبيل ســـواه .. وتنهد آسفا وهو يقول : « فلأكتب لها كتابا ...» وبسط على عجلته ورقة وكتب الى السيدة ابانا يقرئها السلام ويستودعها الرب ، ويدعو لابنـــه بالخلاص والسعادة ، ثم قص عليها ما وقع من أحداث ، وما صـــار اليه الجيش ومليكه ، وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة الى مكان مجهول ــ ولم يذكر النوبة لحكمة يريدها ــ ونصح لها أن تجمع ما تستطيع

من ماله ، وتفر وابنهـا ومن يتبعها من الأهل والجيران الى خارج طيبـة ، أو الى الأحيـاء الفقيرة ، حيث يختلطون بعـامة الشعب ويشاركونهم مصائرهم . ثم باركها وبارك ابنه ، وختم كتابه بقوله : « سنلتقى حتما يا ابانا هنا أو فى العالم السفلى » . وأعطى الكتاب سائقه ، وكلفه أن يذهب به الى قصره الريفى ويسلمه الى زوجه ، ثم قفز الى عجلته وألقى نظـرة أخيرة على معبد آمون والمدينـة الهاجعة الغارقة فى الظلام ، وهتف من صميم قلبه : « رباه .. احفظ بلدك .. الوداع يا طيبة .. » .

ثم أرخى العنان لجواديه ، فانطلقا به يعدوان فى طريق الشمال .

## ١٤

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليـل ، وكان الجيش الجريح نائما ، فمضى الى خيمته وارتمى على سريره فى اعيـاء وهو يقول : « فلنستجم قليـلا لنموت ميتة تليق بقـائد قوات سيكننرع » . وأغمض جفنيه ، ولكن بعض أخيلة قامت غشاء كثيفا بين رأسه وبين النوم ، فتخايلت له أشباح الأهوال التى ابتلى بها فى نهاره وليله ، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل ، ومولاه سيكننرع يسقط صريعا والرمح فى جانبه ، وكاموس يثور غاضبا ، ثم يسلم محزونا ، وتوتيشيرى تئن من جرح قلبها العجوز ، والوداع وابانا وأحمس الصغير ، وتلك السحب المتلبدة التى تتجمع فى أفق الجنوب .. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشـبه الموج ، ورقت وتهافتت بغير شعور منه ، فانساب النوم الى جفونه .

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير ، فقام يحس نشاطا غريبا لا يتفق وما لاقاه من ارهاق ونصب ونوم خفيف ، وبرح خيمته الى الخارج ، فسمع فى سكون الفجر حركة تنتفض فى أنحاء المعسكر ،

ورأى أشباح رجال تقبل نحوه ، عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين ، فاستقبلهم استقبالا حارا ، وكانوا قد قاموا فى أثناء غيبته بعمل عظيم ، فقال رجل منهم :

ـ أرسلنا الجرحى فى قوارب الى طيبة ، وكذلك المصابين اصابات خفيفة ، لكى ينضموا الى قوات الدفاع عن أسوار طيبة ، وما من شك فى أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط .

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة :

ـ اننا ـ معشر أهل الجنوب ـ تهون علينا الحياة فى أوقات المحن ، فما من رجل منا الا نفد صبره فى انتظار المعركة الأخيرة .

وقال ثالث :

ـ ما أشهى الاستشهاد الى نفوسنا فى هذه البقعة المقدسة ، التى ارتوت بدماء مليكنا الزكية ..

فأثنى بيبى عليهم جميل الثناء ، وقص عليهم ما وقع فى طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية ، ولكنه لم يذكر لأحد المكان الذى قصدت اليه . وقد بلغ التأثر بالضباط مبلغا عظيما ، وهتفوا لكاموس الملك ، وأحمس ولى عهده ، والأم المقدسة توتيشيرى ..

وولت ظلال الظلام ، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق ، فانتظمت صفوف الجنود تأهبا لمعركة الموت. وكان ملك الرعاة يدرك ما حل بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم ، فأراد أن يصعقهم بقوات تشل فيهم كل مقاومة ، فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة ، ليقضى بضربة واحدة على الجيش الصغير الذى يعترض سبيله .. وحين تراءى الجمعان ، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافى ، وأطبق جيش أبوفيس على الجيش المصرى ، ودارت عجلة الموت ، وبذل المصريون كل ما فى طاقة البشرية من بسالة وبطولة ، ولكنهم تساقطوا سريعا بطلا فى أثر بطل ، وداستهم أرجل الخيل

بقساوة . وبدا لعينى بيبى أن المعركة تنتهى سريعا ، ولا سيما لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط ، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلا ، والعدو يوشك أن يحيط بهم . وكان يقاتل قتالا مروعا ، ويصد هجمات بالغة العنف ، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام . وجال بنظره فى جيش عدوه ، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبوفيس وكبار قواده — وبينهم قاتل سيكننرع بغير شك — فجعله هدفه ، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره . ثم أمر سائقه بالاندفاع ، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه ، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات ، وأرسلت سهامها الى قلوب الرماة ، ومضت تدنو من أبوفيس حتى فطن الأكثرون الى غرضها ، فتصايحوا غضبا وخوفا . وقاتل بيبى ومن معه قتال من جن بحب الموت ، فتدلل عليهم الموت طويلا ، حتى شقوا الصفوف الى جبهة أبوفيس وقواده ، وهنالك وجد بيبى نفسه محاطا بفرسان العدو من كل جانب ، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك ، فقاتل قتالا عنيفا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه ، حتى ظن عدوه أنه شىء لا يموت ، وتكالبت عليه السهام والرماح ، والسيوف والخناجر ، فسقط كما سقط سيكننرع لاحقا بحرسه البواسل ، وقد ضج الجيش من هجمته الهائلة . وكان القتال — فى الميدان — فى نهايته ، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم ، فأمر أبوفيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذى انقض عليه خلال صفوفه المتراصة ، ونزل عن عجلته وترجل دانيا منه ، حتى وقف على رأس جثته ، وجعل يتأمل السهام المنغرسة فى كل قطعة منه كشعر القنفذ ، ثم هز رأسه الكبير ضاحكا ، وقال لمن حوله :

— لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا .

## ١٥

واستيقظت طيبـــة كعادتها لا تدرى عما سطر لها فى لوح الأقدار شيئا ، واذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان ، فتجمع الناس حولهم ، وتكاثروا بالأسئلة عليهم، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم ان الجيش هزم وفرعون قتل ، وهاجرت أسرته الى مكان مجهول . وذهل الناس وتبادلوا نظرات الانكار والانزعاج ، وذاع الخبر فى المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل ، ففارق الناس ديارهم ، وهرعوا الى الطرق والأسواق ، وتجمعـــوا فى دور الحكومة ومعبد آمون ليأنســـوا بالجماعة ويستمعوا الى زعمــائهم . أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين ، وفروا جماعات الى الجنوب ، أو اختفوا فى ثنـــايا الأحياء الفقيرة ...

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسى وشنهور ، وأن جيوش الرعاة تتقدم نحو طيبة لضرب الحصار حولها ، واجبارها على التسليم . فاجتمع الوزراء والكهنـــة والقضاة الثلاثون فى بهو الأعمـــدة بمعبد آمون ، وتشـــاوروا فى الأمر ، وكانوا جميعا يدركون خطر الحال ، ويحسون دنو النهاية وعبث المقاومة . ولكنهم لم يميلوا الى التسليم دون شرط أو قيد ، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعة حتى ينالوا وعدا بحقن دماء الأهالى ، الا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائر الغضب ، فقال لهم :

ــ لا تسلموا طيبة أبدا ، ولنقاوم حتى نموت كمليكنا سيكننرع ، ان أسوار طيبة لا تقتحم ، واذا هدمت حقا فلنخرب المدينة ونشـــعل فيها النيران ، ولا نترك لأبوفيس شيئا منها ينتفع به .

وكان أوسرآمون يهدر غاضبا ، ويلوح بيديه كأنه يخطب ، ولكن الرجال لم يتحمسوا لفكرته ، وقال له نوفر آمون :

— نحن مسئولون عن حياة أهل طيبـــة ، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرد والجوع والبؤس ، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفف الآلام ونحصر الدمار ..

وفى أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشمالى بغير هوادة ، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة ، والقتلى تسقط من الجانبين . وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا الى المقاومة ، ولكن أسطول العدو هجم على الأسطول المصرى بعد أن جاءه مدد جديد ، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصرى وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة ، وأنزل جنودا كثيرين فى جنوبها ، فضرب حصاره الكامل حول المدينة ، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجـوما عنيفا . وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كل أمل فى اطالة المقاومة ، وهددت المدينة العظيمةبالمجاعة والظمأ ، فلم ير الزعماء بدا من التسليم تفــاديا من الكارثة العظمى ، وأوفدوا ضابطا يعلن وقف القتــال ، ويستأذن فىقدوم رسول عن المدينة للتحدث فىشروط التسليم النهائى. وعاد الضابط بالموافقة ، فوقف القتال فى جميع الأســوار ، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولا ..

وقبل الكاهن على غضاضة ، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأس كسير الفؤاد ، ومر فىطريقه بالفرق المختلفةمتراصة الصفوف فى قوة وصلف وزهو ، تخفق عليها الأعلام من كل لون . ثم وقفت العربة فترجل فى سكون ، ووجد فى اســتقباله بعض الضباط يتقدمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية ، عرفه من النظرة الأولى، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذى حل بحلوله الدمار بمملكةطيبة ، ولم يغب عنه ما فى استقباله من الشماتة المقصودة . وبدأ الرجل صلفا متعجرفا مزهوا ، فنظر الى نوفر آمون بمؤخر عينه ، وقال دون تحية :

ـ أرأيت أيها الكاهن الى أى مصير انتهى بكم رأى أميركم ؟... انكم تتحمسون كثيرا وتحسنون الكلام ، ولكن لاقبل لكم بالقتال ... ولقد قضى على مملكتكم بالزوال الى الأبد ...

ولم ينتظر الحاجب كلاما فسار أمامه نحو خيمة الملك ، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر ، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحى الطويلة .. ثم أذن له فدخل ، ورأى فى الصدر الملك أبوفيس فى زى الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكان مهيب الطلعة حاد البصر أبيض مشربا بحمرة ، مسترسل اللحية جميلها ، وسط هالة من قواده وحجابه ومستشاريه ، فانحنى له الكاهن فى اجلال ، ووقف صامتا ينتظر أمره ، فقال الملك بلهجة ساخرة :

ـ أهلا بكاهن آمون الذى لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر ..

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة ، فضحك الملك ضحكة عالية وسأله بتهكم :

ـ أجئت تملى علينا شروطا ؟

فقال نوفر آمون :

ـ بل جئت أيها الملك لأستمع الى شروطك ، كما ينبغى لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم ، وليس لى سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ماشهر سلاحه الا ذودا عن كيانه ..

فهز الملك رأسه الكبير وقال :

ـ يحسن بك أيها الكاهن أن تصغى الى ، ان قانون الهكسوس لايتغير على مدى الأيام والأجيال ، وهوسنة الحرب والقوة الى الأبد.. نحن بيض وأنتم سمر ، ونحن سادة وأنتم فلاحون ، فالعرش والحكومة والامارة والأرض لنا ، فقل لقومك من يعمل فى أرضنا عبدا فله أجره ، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاها فى غير هذه الأرض ، وقل لهم انى أهدر دم بلد كامل اذا امتدت يد بسوء الى أحد من رجالى . أردت أن أحقن دماء الناس ـ فيما عدا أسرة سيكننرع ـ فليأت

الى سادتكم بمفاتيح طيبة ســجدا .. أما أنتم أيها الكهنة فعودوا الى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه الى الأبد ...

ولم يرد أبوفيس أن تمتد المقابلة الى أكثر من هذا ، فقام واقفا ايذانا بانتهائها ، فانحنى الكاهن مرة أخرى وفارق المكان .

وشربت طيبة الكأس حتى ثمالتها ، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا بها الى أبوفيس وسجدوا له ... وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبوفيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة ...

وفى ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبــة ، وأمر باغلاق الحدود بين مصر والنوبة ، ثم احتفل بالنصر احتفالا عظيما اشتركت فيه الجيوش جميعا ، وقسم الأرض والأموال بين رجاله ، فصار الجنوب ملك يده أرضا ورجالا ...

# بعد عشرة أعوام

## ١

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة ، فتبدت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق ، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالا . كان بحارتها نوبيين ، أما قائداها — اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة — فكانا مصريين كما يدل لون بشرتهما الأسمر ، وقسماتهما الواضحة. وكان أولهما شابا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره ، حبته الطبيعة طولا فارعا ، وقدا نحيلا دقيقا ، وصدرا عريضا متينا ، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق ، وعيناه السوداوان بالصفاء والحسن ، وأنفه المستقيم الأشم بالقوة والتناسق ، فهو من الوجوه التى أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معا ، يرتدى لباس التجار الأثرياء ، ويلف جسمه الرشيق فى عباءة ثمينة ، قدت على صورة جسمه . وكان صاحبه شيخا فى الستين ، يميل الى النحافة والقصر ، بارز الجبهة فى استواء وارتفاع ، تدل جلسته على الهدوء الذى يلازم الشيخوخة غالبا ، وأما نظرة عينيه فتنفذ الى الأعماق . وكان يبدو أن همه منصرف الى العناية بالشاب ، أكثر مما هو منصرف الى التجارة التى تحملها السفن . فلما دنت القافلة من منطقة الحدود ، برحا المقصورة ومضيا الى مقدمة السفينة ، يتطلعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الحنين ، ثم سأل الشاب بحماسة وجزع :

— هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر ؟.. قل ماذا نحن فاعلون الآن ؟..

فقال الشيخ :

— نرسى القافلة على هذا الشاطىء ، ونبعث فى قارب رسولا الى الحدود ، يبتغى لنفسه سبيلا عهده بقطع الذهب ..

ــ ان اعتمادنا كله على ما عرف به القوم من طاعة الرشــوة وتلبية نداء الذهب.. أما لو خاب ظننا ...

وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح فى عينيه القلق ، فقال الشيخ :

ــ مادام الظن سوءا فانه لا يخيب مع هؤلاء القوم ...

وعدلت السفينة الى الشــاطىء ، فتبعتها القافلة وألقت مرساتها . واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة الى الحدود ، وكان عظيم الحماسة قوى التصميم ، فلم يعترض الشيخ سبيله ؛ وانتقل الى قارب وجذف بساعديه المفتولين مفارقا القافلة نحو الحدود ، وتبعه الشيخ بعينيه وهو يقول برجاء مؤثر : « أيها الرب المعبــود آمون ... هذا ابنك الصغير يسعى الى وطنه وراء غرض نبيــل أن يعز سلطانك ، ويرفع ذكرك ، ويحرر أبناءك ، فأيده يا رب وانصره واحفظه ... »

ومضى الشاب يجدف فى قوة ، وظهره الى هدفه ، يستدير لينظر وراءه كل هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين ، وأحس لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة جديدة ، خفق لها قلبه أيما خفقان . ثم رأى فى احدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله ، فأيقن أن حراس الحدود تنبهوا له ، وجاءوا يتحققون من أمره . ودنا بقاربه من السفينة حتى سمع صــوت الضابط الواقف فى مقــدمها يصيح به : « كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام ؟ .. »

فصمت الشاب حتى شارف القارب السفينة ، ثم حيــا الضابط اللحية تحية اجلال وتعظيم ، وقال متبالها :

ــ باركك الرب ست أيها الضابط الباسل، انى قاصد وطنكم بتجارة ثمينة .

فقطب الضابط جبينه وقال بفظاظة :

ــ خسئت أيها الأحمق ، ألا تدرى أن هذا الطريق مغلق منذ أعوام ؟ ...

فأبدى الشاب الجميل دهشة ، وقال :

ـــ وماذا يصنع انسان مثلي جمع متاعا ثمينا ليتقرب به من فرعون مصر المعبــود ورجال مملكته ؟ ... هلا أذنت لي بمقابلة حاكم جزيرة بيجه النبيل ؟ .

فقال الضابط بوحشية :

ـــ بل ستعود من حيث أتيت حيا ، ان لم ترغب في أن تدفن حيث تثرثر . . .

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطــع الذهب ، ورمى بها تحت قدمي الضابط قائلا :

ـــ نحن في بلادنا نحيي آلهتنا بتقديم الهدايا ، فاقبل تحيتي ورجائي .

فتناول الضابط الحافظة وفتحها ، وعبثت أنامله بقطــع الذهب ، فاختلجت أجفــانه ، وردد بصره بينها وبين الشاب بذهول . ثم هز رأسه كأنه لا يخفي حنقه على الفتى الذي ثناه عن رأيه قسرا ، وقال بصوت هادىء :

ـــ ان دخول مصر ممنوع ، ولكن قد تســتحق رغبتك الشريفة استثناءك من أمر المنع ، فاتبعني الى حاكم الجزيرة .

وابتهج الشاب ، واتخذ مجلسه مرة أخرى في القارب ، وشد على المجداف بقوة ونشاط ، وانحدر متتبعا السفينة صوب شاطىء بيجة . ورست السفينة ثم القارب ، ووضع الشاب قدميه على الأرض في حذر واشفاق ، كأنما يدوس شــيئا طاهرا مقدسا . وقال له الضــابط مرة أخرى : « اتبعني » . فتبعه على الأثر .. وبالرغم من تشدده في التسلط على أعصابه ، أفلت زمامه وتمشت في حواسه نشوة ، وعصر قلبه حنين سماوي ، فخفق قلبه خفقانا شديدا متواليا ، وجعل من شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعا . انه في أرض مصر .. مصر التي يحفظ لها أجمل الذكريات ، وأفتن الصور ، وأبهج الآثار . انه يود لو يترك وحيدا فيملأ صدره من نسيمها العليل ، ويمرغ خديه بثراها .. انه في أرض مصر . .

ـ ستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرة : « اتبعنى » . فنظر فرأى قصرا جميلا يقف أمامه رجال مسلحون، فأدرك أنه أمام قصر حاكم الجزيرة . ودخل الضابط ، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التى تصوب نحوه من كل جانب .

## ٢

وأذن له بالدخول الى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط اليه ، وكان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر فى مظالمهم لغير الذهب ؛ وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضى نحوه ، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة ، وعيناه اللوزيتان الحادتان ، وأنفه البارز الأقنى كأنه شراع قارب . وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة ، ونظرة تدل على الحذر والريبة . فانحنى الشاب بين يديه باجـلال عظيم ، وقال بأدب بالغ :

ــ ندى الرب صباحك أيها الحاكم الجليل .

وكان الضابط حدثه عن القادم الغريب الذى يرمى فى غير مبالاة بحافظـة ملأى بقطع الذهب الوهاج ، ويسوق قافلة محملة بالهـدايا ليتقرب بها من سادة مصر ، فرد تحيته باشارة من يده ، وسأله بصوت غليظ أجوف :

ــ من أنت ؟ ومن أى البلاد ؟ ..

ــ أدعى يا مولاى اسفينيس ، من بلدة نباتا من بلاد النوبة .

فهز الرجل رأسه بارتياب ، وقال :

ــ ولكنى أرى أنك لست نوبيا ، وان صدق نظرى فأنت فلاح ..

فخفق قلب اسفينيس لهذا الوصف الذى نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار ، وقال :

ــ صــدقت فراسة مولاى ، فأنا حقا .. فلاح .. من أسرة مصرية هاجرت الى بلاد النوبة منذ أجيال ، واشتغلت بالتجارة عهدا طويلا حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة ، فانقطع رزقها ..

ــ وماذا تريد ؟ ..

ــ لدى قافلة محملة بخيرات البــلاد التى قدمت منها ، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر ..

فعبث الحاكم بلحيته ، وحدجه بنظرته المرتابة ، وقال :

ــ أتعنى أنك تجشمت مشاق السفر ، لمحض التقرب والزلفى ؟ ..

ــ سيدى الحاكم الجليل ، نحن نعيش فى بلاد ملأى بالوحــوش والكنوز ، الحياة فيها جد قاسية ، والجوع والجدب ينشبان أظفارهما فى الرقاب ؛ نجيد صياغة الذهب ، ونضنى فى الحصول على قدح من الحبوب . فاذا تقبل سادتى هداياى ، وأذنوا لى بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال ، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان ، وبدلت بؤس قومى أنعما ..

فضحك الحاكم ضحكة عالية ، وقال :

ــ أرى الأحلام تطيح برأسك .. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرع؟. ولكنك ترجو أن يكلل مسعاك باصدار أوامر فرعونية لمصلحتك .. حسنا ... الحمقى كثيرون ... ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هــذا ؟ . . .

فحنى اسفينيس رأسه اجلالا ، وقال باغراء التاجر الأريب :

ــ هلا تفضــل مولاى بزورة قافلتى ليطلع بنفسه على نفائسها ، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها ؟ .

وتحركت لواعج النهم والجشع فى نفس الحاكم ، فاستطاب الفكرة ، فقال لاسفينيس وهو يهم بالقيــام للذهاب معه : « ســأمنحك هذا الشرف .. » . وتقدمه الى السفينة الحربية ، ثم الى القافلة ، وعرضت لناظريه الحلى والجواهر والحيوان العجيب ، فشاهد النفائس بعين يلتمع

فيها نور الجشع الخاطف . وأهدى اليه اسفينيس صولجانا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرد والياقوت ، فتقبلها بلا كلمة شكر ، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطا ثمينة ، وأنشأ يقول لنفسه .. لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول الى مصر ؟ .. ليست هذه تجارة ، ولكنها هدايا تسبي العقول ، وسيرحب بها فرعون بغير جدال. فان حقق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى . أو رفض مطلبه فلا شأن لي به.. وأمامي فرصة سانحة ينبغي أن أنتهزها ، ان خنزر حاكم الجنوب مغرم بكل نفيس ، فلأبعث بالتاجر اليه فيذكر لي صنيعي على ما أهديت اليه من كنز ، وما أتحت له من فرصة يزداد بها قربا الى مولاه .. فاذا أراد يوما أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكما ذكرني بلاريب .

وتحول نحو اسفينيس وقال :

— سأعطيك فرصة لتجرب حظك ، فسر توا الى طيبة ، وهاك كتابا الى حاكم الجنوب تذهب به اليه لتعرض نفائسك ، وتسأله الشفاعة في رجائك ...

واستخف الفرح اسفينيس ، فانحنى للحاكم شكرا وارتياحا .

# ٣

وكان أول كلمة نطق بها اسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته ، أن قال للشيخ الذي يلازمه :

— منذ هذه الساعة لا أحمس هناك ولا حور ، ولكن اسفينيس التاجر ووكيله لاتو ...

فابتسم الشيخ وقال : « نطقت بالحكمة أيها التاجر اسفينيس .. »

ونشرت القافلة شراعها ، وتحركت مجاذيفها ، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر ، واجتازتها في أمان وسلام . وكان اسفينيس ولاتو

يقفان عند مقدم السفينة يكابدان شوقا واحدا ، تكاد عيناهماتشرقان بالدمع . قال اسفينيس : « بدء حسن » . فقال لاتو : « نعم ، فلنصل للرب آمون شكرا ، ونسأله أن يسدد خطانا ويكلل مسعانا بالفوز المبين » . وجثوا على سطح السفينة وصليا معا ، ثم عادا الى وقفتهما ، وقال اسفينيس :

— اذا ظفرنا باعادة الروابط مع النوبة الى سابق عهدها ، فقد ظفرنا بنصف النجاح ، فنعطيهم ذهبا ونأخذ رجالا ..

— اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة اغراء الذهب . ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام ؟.. ان الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس ؛ ولكنه كسلان يستخدم غيره ، ويتعالى على التجارة ، ولا يحتمل الحياة فى النوبة ؛ فلا سبيل الى ذهبها الا بمن يتطوع مثل التاجر اسفينيس بحمله اليه ..

ومضيا معا يلقيان ببصرهما الى مجاهل الأفق البعيد الغارق فى مجرى النيل ، يقلبان الطرف فى خضرة ناضرة تكتنف القرى والدساكر ، تحلق فوقها الأطيار ، وترعاها الثيران والبقر نشاوى ؛ والفلاحون يعملون هنا وهنالك عراة لايرفعون رءوسهم عن الأرض ، فأثار منظرهم فى صدر الشاب الحب والغضب ، واستعر قلبه حنانا وحنقا ، فقال :

— انظر الى جنود أمنمحيت ، كيف يعملون عبيدا للبيض الحمقى المتعجرفين ذوى اللحى القذرة ..

وتقدم المسير بالقافلة ، فمرت بأمبوس وسلسليس ومجنا ونخب وترت ، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة ، وتساءل اسفينيس : « أين ينبغى أن ترسو السفينة ؟ » . فقال لاتو مبتسما : « فى الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين ، وجميعهم مصريون خلص » . فأمن الشاب على قوله ، ولاحت منه نظرة الى الأمام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم ، فعلق بصره بها وهى تدنو

رويدا رويدا ، حتى استطاع أن يتنورها ، فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة ، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألق فى جوانبها الفن الجميل ، فخال أنه رأى مثلها من قبل . ولكز لاتو فى ذراعه متمتما : « انظر » . فنظر الرجل وقال بسرعة : « رباه ! هذه سفينة فرعونية » ، ثم استدرك : « انها تسير بغير حرس ، فلعل راكبها أحد رجال القصر ، أو أمير يطلب الخلوة .. » . ودنت السفينة فكادت تلتقى بالقافلة ، وأثار منظر القافلة الغريب تطلع أصحابها ، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوارى ، تقدمتهن فى أناة كأنها شعاع من النور الساطع يغشى العيون ، شقراء يعبث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض ، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية ، فأيقنا أن صاحبتهما أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم ...

ورأياها تشير بأنملتها الى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاها ، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوارى الحسان . فالتفت اسفينيس الى الوراء ، فرأى قزما من الأقزام التى أتى بها يسير على ظهر السفينة ، فأدرك سر دهشة الأميرة الجميلة . ونظر الى لاتو مبتسما أن لاقت احدى الهدايا ما تستحق من التقدير ، ولكن لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب . ونادى النسوة نوتيا ، فتقدم من حافة السفينة ، وصاح موجها خطابه الى لاتو بلهجة أمر لا يرد :

ــ قف أيها النوتى وألق مرساتك ..

وأذعن اسفينيس للأمر ، وأصدر أمره الى القافلة بالتوقف . ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التى ظهر بسطحها القزم ، وسأل النوتى اسفينيس :

ــ ما هذه القافلة ؟..

ــ قافلة تجارة يا سيدى .

فأشار بيده الى القزم ، وكان يفر الى باطن السفينة ، وقال :

ــ هل يؤذى هذا المخلوق ؟
ــ كلا يا سيدى ..
ــ ان صاحبة السمو الفرعونى ترغب فى مشاهدة هـذا المخلوق عن كثب .

فهمس لاتو قائلا : « هذا لقب ابنة فرعون .. » . أما اسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال :

ــ حبا وكرامة ..

وسـارع الى مفارقة السفينة الى قارب سـار به الى السفينة الأخرى ، وصعد الى سطحها ليكون فى اسـتقبال الأميرة . وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهن من السفينة حتى بلغنها ، فصعدن الى السطح تتقدمهن الأميرة ، فانحنى الشـاب بين يديها فى اجلال ظاهر ، وكان يقـاوم شـعوره بالاستهانة ، ويتظاهر بالارتبـاك والاضطراب ، فقال بتلعثم :

ــ لقد أوليت قافلتى شرفا رفيعا يا صاحبة السمو ..

ثم رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة ، رأى وجها تجسم فيه الحسن والكبرياء ، ففيه من دواعى الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة ، ورأى عينين زرقاوين يتجلى فى صفائهما التعالى والاقدام . فلم تلق الى تحيته بالا ، ودارت بعينيها فى المكان تبحث دون ريب عن القزم ، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب فى آذان سامعيه :

ــ أين ذهب المخلوق العجيب الذى كان هنا ؟

فقال الشاب :

ــ سيكون بين يديك ..

وذهب الى كوة تطل على باطن السفينة ، ونادى قائلا : «زولو» . وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة ، وتبعه جسمه ، ثم أقبل على صاحبه ، فأخذه هـذا من يده الى حيث تقف الأميرة وجواريها ، وكان يسير ملقيا بصـدره الى الأمام فى خيلاء مضحكة ، وبرأسه

الـكبير الى الوراء ، ولا يزيد طوله على أربعة أشـبار ؛ أما لونه فشديد السواد ، وأما ساقاه فمقوستان . قال له اسفينيس :

ــ حى مولاتك يا زولو .

فانحنى القزم حتى مس شعره المفلفل الأرض ، فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم :

ــ أحيوان هو أم انسان ؟

ــ هو انسان يا صاحبة السمو .

ــ ولماذا لا نعده حيوانا ؟

ــ له لغته ودينه .

ــ يا عجبا .. وهل يوجد منه كثيرون ؟

ــ نعم يا مولاتى ، انه ينتمى الى شعب وافر العدد ، فيهم نساء ورجال وأطفال ، ولهم ملك وسهام مسمومة يسددونها نحو الحيوان المفترس والانسـان المغير ؛ ولكن قوم زولو يأنسون الى النـاس سريعا ، ويخلصون المودة لمن يصادقهم ، ويتبعونه كالـكلب الأمين .

فهزت رأسها المكلل بخصلات الذهب عجبا ، وافتر ثغرها عن در نضيد ، وتساءلت :

ــ وأين يعيش قوم زولو ؟

ــ فى أقاصى غابات النوبة ، حيث يرقد النيل المعبود ..

ــ دعه يحدثنى ان استطعت .

ــ انه لا يستطيع أن يتكلم لغتنا ، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر ، ولكنه سيحيى مولاته بلغته .

ــ وقال اسفينيس للقزم : « ادع لمولاتك دعاء طيبا » .

فاهتزت رأس القزم الكبير كأنه يرعش ، ثم نطق بكلمات غريبة بصـوت أدنى الى الخوار ، فلم تملك الأميرة أن ضحكت ضحكة عذبة ، ثم قالت :

ــ حقا انه غريب ، ولكنه قبيح لا يسرنى

فبدا الأسف على وجه الشاب ، وقال بلباقة التاجر الماكر :

ـ ليس زولو يا صاحبة السمو بخير ما فى قافلتى .. اليك دررا وحليا تفتن النفوس وتسلب الألباب .

فتحولت فى استهانة عن زولو الى المتباهى بنفائسه ، وألقت عليه نظرة فاحصة لأول مرة ، فهالها طوله الفارع ونضارة شبابه ، وعجبت أن يكون هذا المظهر لتاجر من عامة الشعب ، وسألته :

ـ هل لديك حقا حلى تستحق الاعجاب ..؟

ـ نعم يا مولاتى .

ـ اذاً أرنى عينة .. أمثلة مما عندك ؟

وصفق اسفينيس ، فجاءه عبد فألقى اليه كلمات بصوت خافت ، فغاب الرجل هنيهة ، ثم عاد يحمل صندوقا من العاج بمعاونة رجل آخر ، فوضعه أمام الأميرة وفتحاه ، وتنحيا جانبا . ونظرت الأميرة فى داخل الصندوق ، واشرأبت أعناق الجوارى ، فرأت ما يسر القلب من لآلىء لامعة ، وأقراط وأساور . وتفحصتها بعين واعية ، ثم مدت يدها البضة الرخصة الى عقد آية فى السذاجة والجمال ، قلب من الزمرد فى سلسلة من خالص الذهب ، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت :

ـ من أين لك بهذا الحجر النفيس ؟.. ليس فى مصر نظيره ؟

فقال الشاب بابتهاج :

ـ انه درة كنوز النوبة .

فتمتمت قائلة :

ـ النوبة .. بلاد زولو .. ما أجمله ..

فابتسم اسفينيس وهو ينعم النظر الى أناملها ، وقال :

ـ أما وقد حاز اعجاب سموك ، فلا يجوز أن يرد الى صندوقه .

فقالت فى سهولة : « نعم .. ولكن ليس لدى ثمنه .. هل أنت ذاهب الى طيبة ؟.. » .

فقال : « نعم يا مولاتى » .

فقالت : « ما عليك الا أن تقصد الى القصر فتقبض ثمنه » .

فانحنى الشــاب اجلالا ، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو ، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق ، يتبعها الجوارى . وتعلقت بها عينا الشاب حتى غيبها عنه حائط السفينة ، ثم تنبه الى نفسه ، فعاد الى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع ، وقد بادره :

ـــ ما وراءك ؟..

فأجمل له أقوال الأميرة ، وتساءل ضاحكا :

ـــ ترى هل هى حقا ابنة أبوفيس ؟

فقال لاتو بامتعاض :

ـــ هى الشيطانة ابنة الشيطان .

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظرته الغاضبة من ســباته ، وأدرك أن التى أثارت اعجابه ابنة مذل شعبه وقاتل جده ، وأنه لم يشعر فى محضرها بما هى أهل له من المقت والكراهية . وتضــايق وخشى أن تكون لهجته وهو يروى قولها نمت عن اعجاب ساء الشيخ الأمين ، وقال لنفسه : ينبغى أن أكون أهلا للواجب الذى جئت هنا من أجله . ولذلك لم يلتفت الى سفينة الأميرة وأطال النظر الى الأفق ، وحاول أن يحقد على الأميرة ، وأحس أنها قوة حقيقة بكل مقاومة .. لقد ذهبت من سبيله الى الأبد ، ولكن .. رباه .. انها جمــال يجرى فى أعطافه السحر ، ولا يسع من يبتلى برؤيته الا أن يغمض جفنيه من قوة نوره ..

وذكر فى تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتارى ، بقوامها المعتدل ، ووجهها الأسمر الخمرى ، وعينيها السوداوين الساحرتين ، فلم يزد على أن تمتم قائلا : « يا لهما من صورتين متناقضتين جميلتين .. »

٤

وبدا سور طيبة الجنوبى وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات ، فبدى الجلال مجسما يروع الناظرين . ورنا الرجلان الى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن ، وقال لاتو : « حياك الرب يا طيبة المجيدة .. » . وقال اسفينيس : « وأخيرا يا طيبة .. بعد عشرة أعوام طوال فى المنفى .. » . وانعطفت السفينة نحو الشاطىء ، تتبعها على الأثر سفن القافلة ، وقد ضمت الشرع ورفعت المجاديف ، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسمك ، منه ما تزال تدب فيه الحياة ، ويقف فى أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المفتولة ؛ فانبعثت فى نفس اسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم ، وقال لرفيقه :

ـ عجل بنا ، فنفسى مشوقة الى محادثة أى من المصريين ..

وكان الجو معتدلا لطيفا ، والسماء صافية الزرقة ، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشطئان والحقول والمدن ، فنزلا الى الشاطىء يلتفان فى عباءتيهما ، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار . وتقدما خطوات نحو حى الصيادين ، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطىء ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التى ترميها الزوارق فى لجة النيل ، يغنون وينشدون . وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك ، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة اليها صوب الأسواق . وعلى مسير دقائق من الشاطىء أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من الآجر ، مسقوفة بجذوع النخيل ، يدل مظهرها على السذاجة والفقر ..

وكان اسفينيس ينتقل من مكان الى مكان ، مرهف الحواس ، مفتوح العينين ، يتفحص الصيادين ويتتبع حركاتهم ويصغى الى

أناشيدهم ، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالاعجاب والاكبار . وخالط قلبه وهو يشق جموعهم احســاس ألفة وطمأنينة ومحبة ، فتمنى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمهم الى صدره ، ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر . وذكر ما حدثته به عنهم توتيشيرى ، فقال لصاحبه :

ــ يا لهم من رجال أشداء صابرين ...

فقال لاتو ، وكان يشارك الشاب جل عواطفه :

ــ أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالا من الفلاحين ، لأن الرعاة يترفعون عن النزول الى حيهم ، فيعفونهم من غير قصــد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم .

وقطب الشاب غضبا وتألما ولم يتكلم ، وجدا فى السير يلفتــان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما . ورأى اسفينيس عن كثب شابا يافعا يتجه نحوهما يحمل سلة ، وكان يرتدى وزرة قصيرة فى خاصرته ، أما بقيــة جسمه فعــار ، وقد بدا طويلا رشيقا ووجهه حسنا ، فقال اسفينيس :

ــ انظر يا لاتو الى هذا الشاب ، ألم يخلق ليكون فارسا فى فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه ؟..

واقترب الشاب منهما ، فرغب فى الحديث اليه ، وحياه بيده وقال :

ــ حياك الرب أيها الشاب ... هل تدلنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر ؟

فوقف الشاب عن المسير وهم بالرد عليه ، ولكنه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمــه ، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصــح عن الغضب والاحتقار ، وولاهما ظهره ومضى . فتبادلا الرجلان نظرة دهشــة وانكار ، وتبعه اسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلا :

ــ أيها الأخ ، ما الذى جعلك تزهد الرد علينــا وتولينا ظهرك غاضــبا ؟

فصاح به الشاب مزمجرا :

ــ اليك عنى يا عبد الرعاة .

وابتعد غاضــبا يوسع الخطى ، تاركا الشاب فى ذهول وحيرة . ولحقه لاتو وهو يقول :

ــ انه لمجنون بلا ريب .

ــ ليس مجنونا يا لاتو ... ولكن لماذا يدعونى عبد الرعاة ؟

ــ انه لدعاء يثير الضحك .

ــ نعم ... نعم ... ولكن هبنا صــنائع الرعاة ، فكيف تؤاتيــه شجاعته فيتحدانا ؟... انه لشاب جسور حقا يا لاتو ، ويدل سلوكه معنا على أن عشرة أعوام من حكم الرعاة الخــانق لم تســتطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة ...

واستأنفا المسير حتى جذب انتباههما ضجيج عال ، فنظرا يمنة فرأيا بناء كبيرا ذا مدخل صغير فى أعلى حائطه كوات ضيقة ، يدخل اليه جماعات ويخرج منه جماعات ، فســأل الشاب صاحبه : « ما هذا البناء ؟ » . فقال لاتو :

ــ هذه حانة .

ــ هلم نشاهدها

فابتسم لاتو وقال :

ــ هلم .

## ٥

ودخلا الحانة معا ، فوجدا نفسيهما فى مكان متسع حوائطه عالية ، يتدلى من سقفه مصباح يعلوه الغبار ، وفى وسطه وضعت الدنان ، يحيط بها سـور طوله ذراعان وعرضه ذراع ، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون . ويقف فى دائرته صاحب الحانة ، فيملأ الأقداح للملتفين به ، أو يرسلها مع ساق يافع الى الجلوس فى الأركان على أرض الحان . وكان لا يكاد يرفع رأسـه عن دنانه ، فاذا آذاه أحد الشاربين بنكتة أو دعابة انتهره بخشونة وسب وقذف . فجال الرجلان ببصرهما فى المكان ، وأراد اسـفينيس أن يزحم الوقوف حول السـاقى ، فأخذ صاحبه من يده ، وشـق بمنكبيه طريقا الى السور ، حتى ارتقاه وسـط الأعين المحدقة فيهم دهشـة وانكارا . وكان أحس شيئا من التعب ، فقال للخمار مسترسلا :

ـ أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين ؟

فازداد انكار من حوله للهجته وغرابة طلبه ، أما الخمار فرد عليه دون أن يعيره التفاتا :

ـ عفوا أيها الأمير .. ان رواد حانتى ممن يقنعون باقتعاد الغبراء.

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى ، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش ، فانحنى لهمـا فى هزء ، وقال بتلعثم الثمل :

ـ أيها السيدان ، انى أنزل لكما عن كرشى تقتعدانه .

وأدرك اسفينيس خطأه الذى أساء به الى نفسه والى صاحبه ، فق ، :

، هديتك شاكرين ، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك ا الكرش ؟

وسر السكارى بسؤال الشاب ، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش : « أجب يا طونا .. أجب .. كيف تشرب أقداحك اذا نزلت للسيدين عن كرشك ؟.. » .

وقطب الرجل مفكرا ، وهرش رأسه متحيرا وقد تدلت شفته السفلى كقطعة كبد دامية ، ثم أضاءت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحل السعيد ، وقال : « أشرب خمرا مهضومة .. »

فضحك الرجال ، وسر اسفينيس لاجابته ، وقال له متلطفا :

ـ أنى أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم ، الذى خلق ليكون زق خمر لا مقعد جلوس ..

ثم نظر اسفينيس الى الخمار وقال له :

ـ أيها الرجل الطيب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا ..

وملأ الرجل الأقداح وقدمها الى اسفينيس ، فخطف طونا قدحه وأفرغه فى فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق ، ثم مسح فمه بكفه ، وقال لاسفينيس :

ـ أنت غنى بلا شك أيها السيد الكريم .

فقال اسفينيس مبتسما : « حمدا للرب على نعمائه » .

فقال طونا : « ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان ؟.. »

ـ صدقت فراستك ، وهل من تناقض بين أن نكون مصريين وغنيين ؟

ـ نعم ، الا أن تكونا من المقربين الى الحاكمين ..

وهنا قال رجل آخر : « وهؤلاء يقلدون سادتهم فلا ينزلون الى مخالطتنا .. » .

فتجهم وجه اسفينيس ، وعاودته صورة الشاب الذى صاح به غاضبا منذ حين قائلا : « يا عبد الرعاة » . ثم قال :

ـ نحن من مصريى النوبة ، وجئنا مصر حديثا ..

وساد الصمت ، ودوت كلمة النوبة فى الآذان دويا غريبا ، ولكن

كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم ، فلا يقدرون على جمع شتات أفكارهم ، فنظر أحد الرجال الى كأس الرجلين اللذين لم يقرباهما ، وقال بلسان ثقيل :

ــ لماذا لا تشربان ، سقاكما الرب أطيب خمر الجنان ؟

فقال لاتو : « قليلا ما نشرب ، واذا شربنا فعلى مهل .. » .

فقال طونا : «نعم ما تفعلان ، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة ؟. أما أنا فشقائى بمهنتى جلل ، وشقائى بأسرتى وأولادى أجل ، وشقائى بنفسى أفدح ، ومناى ألا أرفع القدح عن شفتى » .

فصفق ثمل مسرورا بقول طونا ، وقال وهو يهز رأسه طربا :

ــ هذه الحانة مهجر البائسين ، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشهية وهم جياع ، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة ، ومن يهرجون فى أفراح السادة وهم جرحى قلوب ، صرعى نفوس ..

فقال رجل غير هذين :

ــ اسمعا يا رجلى النوبة ، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه ، فيهوى فاقد الوعى ، ولأضرب لكما مثلا بنفسى ، فما من ليلة أعود الى كوخى الا محمولا ..

وانتفض اسفينيس ، وأدرك أنه بين جماعة من مبتئسى البشر ، وسألهم :

ــ هل أنتم صيادون ؟

فقال طونا : « جلنا صيادون .. » .

وهز صاحب الحانة كتفيه استهانة ، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله : « أما أنا فخمار يا سيدى » .

فقهقه طونا ، ثم أشار بأصبع غليظة الى رجل قصير القامة ، نحيف القد ، دقيق الأطراف ، واسع العينين براقهما ، ثم قال :

« وان أردت التدقيق فهذا الرجل لص .. » . فنظر اسفينيس الى الرجل بغرابة وانكار ، فارتبك ، وأراد أن يطمئنه فقال :

«لايساورك القلق يا سيدى ، فأنا لا أسرق فى هذا الحى جميعه» .
وعلق طونا على قول الرجل بقوله :
ـ يعنى أنه لما كان لا يوجد فى حينا ما يستحق مشقة السرقة ، فهو يعاشرنا كأحدنا ، ويمارس فنه فى أطراف طيبة ، حيث المال موفور ، والسعادة وارفة الظلال ..
وكان اللص نفسه ثملا ، فقال بلهجة الاعتذار :
ـ لست لصا يا سيدى ، ولكننى سائح يضرب الأرض ويشرق ويغرب كما تسوقه قدماه ، فاذا عثرت فى سبيلى بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة ، هديتها الى مأوى ، وهو كوخى فى الغالب ..
ـ وهل تأكلها ؟
ـ معاذ الرب يا سيدى ، ان الطعام الحسن يسمم بطنى ، ولكنى أبيعها لمن يشترى .
ـ ألا تخشى الخفراء ؟
ـ أخشاهم أكبر خشية يا سيدى ، لأنه غير مسموح بالسرقة فى هذا البلد لغير الأغنياء والحكام ..
فأمن طونا على قول اللص قائلا :
ـ القاعدة المتبعة فى مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء ، ولكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء .
وكان يتكلم وعيناه تحدقان فى القدحين المترعين بنهم وجشع ، فغير مجرى الحديث وقال باستياء :
ـ لماذا تتركان قدحيكما فتنة للشاربين ؟
فابتسم اسفينيس وقال له مسترسلا : « هما لك يا طونا .. » .
فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين ، مرسلا لمن حوله نظرات وعيد ، ثم أفرغهما فى جوفه قدحا اثر قدح ، وتنهد بارتياح .
وأدرك اسفينيس معنى الوعيد الذى يهدد به ، فطلب للقريبين منه جعة ونبيذا مما يشتهون ، فشرب الجميع وضجوا فرحين ، وانطلقوا

فى الأحاديث والغنـاء والضحك . وكان الشقاء والفقر يرتسمان على وجوههم جميعا ، ولكنهم بدوا فى تلك الساعة سـعداء ضاحكين ، لايحسبون حسابا للغد . واندمج اسفينيس فىجوهم جذلا مسرورا ، تعتاده الكآبة بين الحين والحين . وقضى بينهم زمنـا ليس بالقصير ، حتى دخل الحانة رجل تدل هيئته على أنه منهم ، فحياهم باءاءة وطلب قدحا من الجعة ، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدل على شىء :

ــ قبضوا على السيدة ابانا وساقوها الى المحكمة ...

ولم يعره الأكثرون التفاتا لما أذهل الشراب من عقولهم ، وسأله آخرون :

ــ ولم ؟

ــ يقال ان ضابطا كبيرا من الرعاة اعترض سبيلها على شـاطىء النيل ، ورغب فى أن يضمها الى نسائه ، فقاومته ودفعته عنها ..

فزمجر الكثيرون ، وسأله اسفينيس :

ــ وما عسى أن تصنع بها المحكمة ؟..

فحدجه الرجل بنظرة انكار ، وقال :

ــ ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها ، فتأمر بجلدها بالسياط ، والزج بها فى السجن ...

فتجهم وجه اسفينيس وامتقع ، وقال للرجل :

ــ هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة ؟

فقال له طونا بتلعثم : « الشراب أولى بذهبك ، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضـابط الكبير ، ويعرض نفســه لعاقبة غير مأمونة » .

وسأله الرجل الذى أذاع الخبر : « هل أنت غريب يا سيدى ؟.. »

فقال اسفينيس :

ــ نعم ، وأرغب فى حضور هذه المحاكمة

ــ أكون دليلك الى المحكمة اذا شئت .

وفى أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه ، وقال هامسا :
ــ اياك والتورط فى أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة .
فلم يجب اسفينيس ، واقتفى من فوره أثر الرجل .

## ٦

كانت المحكمة مكتظة بذوى الحاجات وأصحاب القضايا والشهود ، وامتلأت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات ، وفى الصدر جلس القضاة ذوو اللحى المرسلة والوجوه البيض ، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة ثمى . فاتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين ، وقال لاتو لاسفينيس همسا : « انهم يقلدون أنظمتنا فى ظاهرها » . وتفرسا فى الوجوه ، فأدركا أن أغلب الحاضرين من الهكسوس . وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل ، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة ، وأصوات الشكوى والعويل تتصاعد من العراة ذوى الأجسام النحاسية والوجوه السمر . وجاء دور السيدة المنشودة ، فنادى المنادى قائلا : « السيدة ابانا » . وتطلع الرجلان فى لهفة ، فرأيا سيدة تقترب من المنصة فى خطى متزنة ، يدل مظهرها على الوقار والحزن ، وتتجلى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين . وتبعها رجل من الهكسوس يرتدى لباسا فخما ، فانحنى للقاضى باحترام وقال :
ــ سيدى القاضى الجليل ، أنا وكيل القائد رخ ــ الذى اعتدت عليه هذه المرأة ــ وأدعى خم ، وسأنوب عن عظمته أمام القضاء .
فهز القاضى رأسه موافقا ، مما أثار دهشة لاتو واسفينيس ، ثم قال :
ــ بماذا يتهم مولاك هذه المرأة ؟

فقال الرجل بانكار وامتعاض :

ــ يقول مولاى انه التقى بهذه المرأة صباح اليوم ، فرغب فى أن يضمها الى جواريه ، فقابلت صنيعه بالانكار والجحود ، ودفعته بوقاحة عدها اعتداء على شرفه العسكرى ...

فأثار حديث الرجل ضجة بين الحاضرين واستياء ، وتقاربت الرءوس فى همس واستنكار . وأشار القاضى للقوم بصولجانه ، فسادهم السكون ، ثم وجه سؤاله الى المرأة قائلا :

ــ ما قولك يا امرأة ؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها ، كأن اليأس من الانصاف أكسبها أمانا من الخوف ، فقالت بهدوء :

ــ ان قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة ..

فغضب القاضى ، وقال منتهرا اياها :

ــ حاذرى أن تقولى قولا ينال من مقام المشتكى العظيم فتضاعف جريمتك ، قصى قصتك ودعى الحكم لنا ..

فاحمر وجه المرأة ارتباكا ، وقالت وهى ما تزال تحافظ على هدوئها :

ــ كنت أسير فى طريقى الى حى الصيادين ، فاذا عربة تعترض سبيلى وينزل منها ضابط فيدعونى الى الركوب دون امهال ولا سابق معرفة . فارتعت وأردت أن أتحاماه ، ولكنه أمسك بيدى وقال لى انه يشرفنى بضمى الى نسائه . فقلت له انى أرفض ما يعرضه على . ولكنه سخر منى ، وقال لى ان رفض المرأة الظاهرى عين القبول ..

وأشار اليها القاضى اشارة أسكتتها ، وكأنما ساءه أن تأتى على تفاصيل تجرح مقام الضابط ، فسألها :

ــ أجيبى هل اعتديت عليه ؟

ــ كلا يا سيدى ، لقد أصررت على رفضى ، وحاولت التملص

من يده ، ولكنى لم أعتد عليه لا بيدى ولا بلسانى ، ويشهد على قولى هذا جمع غفير من أهل الحى .

ــ أتعنين الصيادين ؟

ــ نعم يا سيدى .

ــ هؤلاء لا تقبل شهادتهم فى هذا المكان المقدس .

فسكتت المرأة ، ولاحت فى عينيها نظرة حيرة وارتباك ، فسألها القاضى :

ــ أليس لديك ما تقولينه غير ذلك ؟

ــ كلا يا سيدى ، وأقسم أنى ما آذيته بقول أو فعل ..

ــ ان المدعى عليك شخص كبير ، وقائد من قواد الحرس الفرعونى ، وقوله حق حتى تقيمى الدليل على نقضه .

ــ وكيف لى بنقضه ، وقد رفضت المحكمة الاصغاء الى شهودى ؟..

فقال القاضى بغضب :

ــ ان الصيادين لا يدخلون هذا المكان ، الا اذا سيقوا اليه متهمين ..

وأعرض الرجل عنها ، وعدل الى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأى حينا ، ثم اعتدل فى جلسته وقال موجها كلامه الى السيدة ابانا :

ــ أيتها المرأة ، لقد أراد بك القائد خيرا فجازيته أسوأ الجزاء ، والمحكمة تخيرك بين دفع خمسين قطعة من الذهب ، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد ..

وأصغى الحاضرون الى الحكم فبدا الرضى على الوجوه جميعا ، الا واحدا صاح بصوت ثائر كأنما أفلت منه الزمام :

ــ سيدى القاضى.. هذه السيدة مظلومة بريئة.. فأطلق سراحها.. اعف عنها انها مظلومة ..

ولكن القاضى استولى عليه الغضب ، وحدج الصارخ بنظرة

أسكتته ، وتوجهت اليه الأنظار من كل صوب فعـرفه اسفينيس ، وقال لصاحبه دهشـا : « انه الشـاب الذى أغضبه حديثنا معه ، واتهمنا بأننـا عبيد الرعاة .. » وكان اسـفينيس مغضبا متألما ، فاستدرك يقول :

ــ لن أدع هذا القاضى الأحمق يزج بهذه السيدة فى السجن

فقـال لاتو بقلق : « ان مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة ، فاحذر أن ينقلب علينا عملك .. » .

ولكنه لم يصغ الى صاحبه ، وتريث حتى سمع القاضى يسـأل المرأة قائلا :

ــ هل تدفعين ما يطلب اليك دفعه ؟

فقام واقفا ، وقال بصوت جميل عذب النبرات :

ــ نعم يا سيدى القاضى ..

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحص الكريم الجسور الذى تقـدم لانقـاذ المرأة فى آخر لحظة ، ونظرت اليه المرأة فى ذهول ، وكذلك الشـاب الذى دافع عنها بالبكاء والاسـتعطاف . أما وكيل القائد فصوب نحوه نظرة نارية برق فيها الوعيد ، ولكن الشـاب لم يبال أحدا ، وسار نحو منصة القضاء بقامته الطويلة الرشيقة ، ومحيـاه الجميل الفاتن ، وأدى الغرم المطلوب الى المحكمة ..

وتفكر القـاضى مليا مرتبكا ، وهو يسـائل نفسه من أين لهذا الفلاح بالذهب ؟ ومن أين له هـذه الشجاعة ؟.. ولم يجد بدا مما ليس منه بد ، فأقبل على المرأة قائلا :

ــ يا امرأة .. اذهبى طليقة .. وليكن لك مما كدت تتردين فيـه موعظة ودرس .

# ٧

وغادروا المحكمة جميعا ، لاتو واسفينيس والسيدة ابانا والشاب الغريب ، وفى الطريق نظرت المرأة الى اسـفينيس ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سيدى ، لقد أنقذتنى مروءتك من ظلمات السجون ، فملكت عنقى بجميل صنيعك ، وحملتنى دينا لا أستطيع الوفاء به .

وخطف الشـاب الغريب يده فقبلها وعيناه مغرورقتان بالدمع ، وقال بصوت متهدج :

ـ فليعف الرب عما سلف من سوء ظنى ، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا من خير بانقاذك أمى من غيابات السجن وآلام الجلد ..

فغلب التأثر اسفينيس وقال برقة :

ـ لا عليكما من هذا ، لقد ابتليت أيتها السـيدة بظلم قبيح ، والظلم وان وقع على نفس بعينها يسىء الى النفوس العادلة جميعا ، وما فعلت الا أن غضبت فنفست عن غضبى ، فلادين هناك ولا وفاء..

ولم يقنع هذا القول السـيدة ابانا ، فظلت على تأثرها تتعثر فى ارتباكها وتقول : « يا له من عمل نبيـل .. يا له من عمل يجل عن الوصف ويعلو على المديح » . وأما ابنها فكان لا يقل عنها تأثرا ، ورأى اسفينيس ينظر اليه فقال كالمعتذر :

ـ ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة ، لما يبدو عليكما من ظاهر الثراء ، فاذا بكما مصريان كريمان لا أدرى من أين جئتما . وقد أقسمت ألا أفارقكما حتى تتفضـلا بزورة كوخنا الصغير ، لنشرب معا قدحا من الجعة احتفالا بتشرفنا بمعرفتكما ، فماذا تقولان ؟..

وراقت الدعوة اسـفينيس الذى كان يرغب فى الاختلاط ببنى جلدته ، وكانت شهامة الشاب وجماله يجذبانه اليه ، فقال :

ــ اننا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور .

وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه ، ولكنها قالت : « أرجو المعذرة لأنكما لن تجدا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع » . فقال لاتو بلباقة :

ــ ان فى صاحبى الكوخ غنى عن كل شىء ، ومع هذا فنحن تجار متعودون شظف العيش ووعثاء الطريق .

ثم ساروا جميعا يشملهم شعور واحد بالمودة ، كأنهم أصدقاء عهد قديم . وفى أثناء الطريق قال اسفينيس لابن أبانا : « كيف ندعوك يا صاحبى ؟.. أما أنا فاسفينيس ، وأما صاحبى فيدعى لاتو » . فحنى الشاب رأسه اكراما ، وقال مبتسما : « ادعوانى أحمس » . فخيل الى اسفينيس كأن أحدا يناديه ، ونظر الى الشاب نظرة غريبة ..

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة ، وكان ساذجا كأكواخ الصيادين ، يتكون من ردهة خارجية وحجرتين صغيرتين متداخلتين ، ولكنه كان على سذاجة أثاثه وفقره الواضح نظيفا حسن الترتيب . فجلس أحمس وضيفاه فى الردهة ، وفتحا الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره ، على حين ذهبت ابانا لتعد الشراب . ولبثوا هنيهة صامتين يتبادلون النظرات ، ثم قال أحمس بعد تردد :

ــ انه من العجب أن يجد الانسان مصريين فى مثل مظهركما الوجيه ، فكيف ترككما الرعاة تثريان ولستما من صنائعهم ..؟

فقال اسفينيس : «نحن من مصريى النوبة ، ودخلنا طيبة اليوم..»

فصفق الشاب بيديه دهشة وسرورا ، وقال : « النوبة .. لقد فر اليها كثيرون فى أثناء غزو الرعاة لبلادنا ، فهل أنتما من المهاجرين ؟..»

وكان لاتو بطبعه شديد الحذر ، فقال بسرعة قبل أن يجيب اسفينيس : « بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة .. »

ــ وكيف استطعتما الدخول الى مصر ، وقد أغلق الرعاة الحدود ؟

فأدرك الرجلان أن أحمس على حداثة سنه يعرف أشياء كثيرة ،

وكان اسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان ، فقص عليه قصة دخولهما مصر . وفى أثناء حديثه عادت ابانا تحمل أقداح الجعة ، وسمكا مشويا ، فوضعت الشراب والطعام أمامهم ، وجلست تصغى الى قصة اسفينيس حتى ختمها بقوله : « ان الذهب يذهل القـوم عن نفوسهم ويخلب ألبابهم ، وسوف نمضى الى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس مانحمل ، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة ، لنعود الى سابق عملنا وتجارتنا » ..

فقدمت ابانا لهما أقداح الجعة والسمك ، وقالت :

ــ اذا وفقتما الى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين ، فلا الرعاة يرضون بالعمل فى التجارة ، ولا المصريون فى حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها ...

وكان لدى التاجرين ما يقولان فى ذلك ، ولكنهما آثرا السكوت عليه . وأقبلا على السـمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان ، وأثنيـا على السيدة أجمل الثناء ، وأطريا مائدتها الساذجة ، فتورد وجهها ، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه . وبلغ منها التأثر مبلغا عظيما فقالت :

ــ لقد مددت الى يدك الكريمة فى الوقت المناسب ، وكم من مصريين بائسين تطحنهم رحى الظلم فى الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين ..

وبدا أحمس سريع التأثر ، فما كاد يسمع أمه تقول هذا القول حتى تضرج وجهه باحمرار الغضب ، وقال بحدة :

ــ المصريون عبيد ، يلقى اليهم بالفتـات ويضربون بالسياط . أما الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملاك جميعا فمن الرعاة . السلطان اليوم للبيض ذوى اللحى القذرة ، والمصريون عبيد فى الأراضى التى كانوا بالأمس أصحابها ..

وكان اسفينيس يرمق أحمس فى أثناء تدفقـه بالكلام بعينين يلوح

فيهما الاعجاب والعطف ، على حين ظل لاتو خافضا عينيه ليخفى تأثره، وسأله اسفينيس :

ــ وهل يوجد مثلك كثيرون يغضبون لهذه المظالم ؟

ــ نعم ، ولكننا جميعا نكظم الغضب ونحتمل الاساءة ، شأن الضعيف الذى لا حيلة له . وانى لأتساءل أما لهذا الليل من آخر ؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضى الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا الشهيد سيكننرع ...

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة ، وامتقع اسفينيس، ونظر لاتو الى الشاب دهشا ثم سأله :

ــ كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنك ؟

ــ تحفظ ذاكرتى صورا قليلة قاتمة ، ولكنها واضحة لاتزول ، لأيام الشقاء الأولى . ولكنى أدين لأمى بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التى لا تفتأ ترددها على مسمعى ...

فنظر لاتو الى ابانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة ، فأراد أن يسرى عنها فقال لها :

ــ أنت سيدة فاضلة وابنك شاب نبيل ...

وقال لاتو لنفسه ان السيدة ما تزال تحاذر بالرغم من كل شىء ، وكان فى نيته أن يسأل عن بعض أمور تهمه ، فعدل عن هذا الى المستقبل . وغير الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه الى وجوه تافهة ، فأعاد الطمأنينة الى النفوس ، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعا شعور المودة الخالصة ، وحين هم التاجران بمبارحة الدار قال أحمس لاسفينيس :

ــ متى تذهب يا سيدى الى حاكم الجنوب ؟

فقال اسفينيس وهو يعجب للسؤال :

ــ ربما ذهبت غدا .

ــ لى رجاء .

ــ ما هو ؟

ــ أن أصحبك الى ضيعته .

فسر اسفينيس لذلك ، وقال للشاب : « أتعرف الطريق اليها ؟ »

ــ حق المعرفة .

وحاولت ابانا الاعتراض على ابنها ، ولكنه أسكتها باشارة عصبية من يده ، فابتسم اسفينيس وقال :

ــ اذا لم يكن عندك مانع ، فستكون الدليل اليها ..

## ٨

وانقضى النصف الأول من اليوم الثانى فى الاعداد لزورة الحاكم ، وكان اسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها ، ويعلم أن حياة آماله جميعا رهينة ببعض عواقبها ، وكذلك آمال من خلفهم وراءه فى نباتا يعترك فى نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل . فشحن سفينته بصناديق التحف واللآلىء ، وأقفاص الحيوان الغريب ، والقزم زولو ، وعدد كبير من العبيد . وقبيل الأصيل وافاهما أحمس ، فحياهما بفرح وقال:

ــ أنا منذ الساعة من عبيدكما ..

فتأبط اسفينيس ذراعه ، ومضوا ثلاثتهم الى المقصورة . ثم أبحرت السفينة صوب الشمال فى جو رائق وريح مؤاتية ، وقد صمت من فى المقصورة ، واستغرق كل منهم فى تأملاته ، مرسلا بناظريه الى شاطىء طيبة . وعبرت السفينة أحياء القراء ، وأقبلت على القصور الشم الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز ، تهفو عليها الأطيار من كل نوع ولون ، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة والنضرة ، تشقها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم ، وتُرعاها الثيران والبقر ، ويعكف عليها الفلاحون العراة الصابرون . وعلى الشاطىء أقيمت المنازف تغرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة . وكانت

النسائم تعابث الأشجار حاملة فى حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران ، وشذا الأزهار والرياحين ، فأحس اسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق ، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج الى الحقول محمولا على هودجه الملكى ، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيونه فرحين بطفولته الطاهرة ، ناثرين الورد فى طريقه السعيد .

وأيقظه صوت أحمس وهو يقول : « ها هو ذا قصر الحاكم » . فتنهد اسفينيس ونظر الى حيث يشير الشاب ، ونظر معهما لاتو وقد لاحت فى عينى الشيخ نظرة دهشة وانكار .

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها ، فاعترض سبيلها زورق حربى غاص بالجنود ، وصاح بهم ضابط فى عنف وعجرفة :

ـ ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح .

فقفز اسفينيس من المقصورة ، ودنا من حائط السفينة وحيا الضابط باحترام ، وقال :

ـ معى رسالة خاصة الى صاحب العظمة حاكم الجنوب .

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية ، وقال :

ـ أعطنيها وانتظر .

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عباءته وأعطاه الضابط . وتفحصه هذا بأناة ، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة ، ونادى حارسا فناوله الرسالة . فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر ، وغاب زمنا يسيرا وعاد مسرعا الى الضابط وأسر اليه كلمات ، فأشار الضابط الى اسفينيس أن يدنو بسفينته . فأمر الشاب ملاحيه بالجدف حتى رست السفينة فى مرفأ القصر ، وقال له الضابط :

ـ ان صاحب العظمة ينتظرك ، فاحمل اليه بضاعتك ..

وأصدر الشاب أمره الى النوبيين ، فحملوا الصناديق وبينهم أحمس ،

ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو . وقال لاتو للشاب وهو يودعه :

ــ فليكتب الرب لك التوفيق .

ولحق اسفينيس بالقافلة ، يقطعون جميعا أرض الحديقة المعشوشبة فى سكون شامل .

## ٩

مضى التاجر لمقابلة الحاكم ، فقاده خادم الى بهو الاستقبال ، وتبعه عبيده بأثقالهم . ووجد الشاب نفسه فى بهو فائق الترف عظيم الأناقة ، يتجلى الفن فى أرضه وحوائطه وسقفه ، وفى الصدر منه جلس الحاكم على متكأ وثير ، فى جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين . وكانت ملامح وجهه الكبير قوية واضحة ، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة والبسالة والصفاء . فأشار اسفينيس الى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم ، واقترب من وسط البهو خطوات ، ثم انحنى اجلالا للحاكم وقال :

ــ حياك الرب المعبود ست أيها الحاكم الأجل ..

فألقى عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة ، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع ، وبدا على وجهه الارتياح لرؤيته ، وسأله :

ــ أقادم أنت حقا من بلاد النوبة ؟

ــ نعم يا مولاى .

ــ وماذا تبغى من وراء رحلتك هذه ؟

ــ أطمع أن أهدى الى سادة مصر تحفا مما يوجد فى بلاد النوبة ، آملا أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها .

ــ وماذا تطلب أنت لقاء ذلك ؟

ـــ بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال .

فهز الحاكم رأسه الكبير ، وقد لاحت فى عينيه نظرة ساخرة ، وقال بصراحة :

ـــ أراك حديث السن ولكنك جسور مغامر ، ومن حسن طالعك أنى أحب المغامرين .. والآن أرنى ما تحمل من التحف ..

ودعا اسفينيس أحمس ، فاقترب الشـــاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميـــه صندوقه ، وفتحه التاجر فبدا ما بداخله من الياقوت صيغ حليا مختلفة أشكالها ، فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والاعجاب ، ومضى يقلبها بين يديه ، ثم سأل الشاب قائلا :

ـــ هل يوجد من هذه الحلى كثير فى النوبة ؟

فأجاب لسفينيس بلباقة ، وكان أعد الجواب من قبل أن يدخل مصر :

ـــ انه لمن أعجب الأمور يا مولاى أن توجد هذه الأحجار الكريمة فى أقاصى أدغال النوبة ، حيث تأوى الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتـــاكة ..

ثم عرض على الحاكم صندوقا من الزمرد ، وثانيا من المرجان ، وثالثا من الذهب ، ورابعا من اللؤلؤ . وتفحصـــها الرجل على مهل مبهورا حتى بدا فى النهاية كالثمل النشوان ، وعرض عليه بعد ذلك أقفـــاص الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول :

ـــ ما أجمل هذا الحيوان فى حديقة القصر .

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه : « يا له من شاب كالشيطان لا يقاوم .. » وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج ، وبدا زولو بخلقه الغريب ، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفا ، ودنا من الهودج ودار حوله وهو يتساءل :

ـــ يا للعجب ... أحيوان هو أم انسان ؟ .

فقال اسفينيس مبتسما :

ـــ بل انسان يا مولاى من شعب جم العدد .

ــ هذا أعجب ما رأيت وما سمعت ..

ونادى الرجل عبدا وقال له :

ــ ادع الأميرة أمنريدس وزوجى وأخى .

## ١٠

وجاء الذين دعاهم الحاكم ، ورأى اسفينيس أن يخفض بصره تأدبا ، ولكنه سمع صوتا رخيما زلزلت له نفسه زلزالا شديدا يقول : « لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم ؟ .. » فاختلس نظرة الى الداخلين ، فرأى فى مقدمتهم الأميرة التى زارت بالأمس قافلته واتقت القلب الزمردى ، وكان منظرها كما عهده يغشى العيون ، وبفعل بها ما يفعله الوهج الشديد ، فأيقن الشاب أن الحاكم خنزر وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة . على أنه رأى وجها آخر ليس بالجديد عليه ، وهو وجه الرجل الذى تبع الأميرة وزوج الحاكم ، فقد كان القاضى الذى حكم على ابانا بالأمس ، وقد وضح له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب . وما من شك فى أن الأميرة والقاضى عرفاه كذلك ، لأنهما ألقيا عليه نظرة ذات معنى . وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت ، فانحنى للأميرة وقال :

ــ تعالى يا صاحبة السمو انظرى الى أنفس ماحوت بطون الأرض ، وأغرب ما حمل سطحها . ودار على الصناديق المحملة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو ، فأقبلوا عليها فى شغف ودهشة واعجاب . ونال القزم قسطه من الانكار والغرابة . وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة واعجابا ، وكانت مغرمة بالجواهر اغراما يضرب به المثل ، فأقبلت على صناديق العاج أيما اقبال . أما القاضى فتحول الى اسفينيس وقال له :

ــ كنت بالأمس أسائل نفسى عن مصدر ثروتك ، وقد عرفت اليوم كل شىء ...

فقلب الحاكم وجهه فيهما ، وقال لشقيقه :

ــ ماذا تعنى أيها القـاضى سنموت ؟ . . هل عرفت هذا الشـاب قبل الآن ؟

ــ نعم يا سيدى الحاكم ، رأيته بالأمس فى المحكمة ، والظاهر أنه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته ، فقد تبرع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلاحـة متهمة باهانة القائد رخ من السـجن والجلد . فترى يا سيدى أن القائد أصيب فى يوم واحـد بفلاحة تتطاول عليه وبفلاح يتحدى غضبه ...

فضحكت الأميرة أمنريدس ضحكة رقيقة سـاخرة ، وقالت وهى تلقى نظرة على وجه الشاب :

ــ وما وجه العجب فى ذلك أيها القاضى سنموت؟.. أليس من الطبيعى أن يشمر فلاح للدفاع عن فلاحة ؟ ..

ــ الحق يا مولاتى أن الفلاحين لا يقوون على شىء ، ولكنه الذهب وسحره . وقد صدق من قال انك اذا رغبت فى أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثم اضربه بالسوط .

أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الاعجاب بأعمال الجسارة والبسالة ، فقـال :

ــ ان التاجر شاب جسور ، وما اقتحامه حدود بلادنا الا آية من آى شجاعته . مرحى .. مرحى .. ليته كان رجل قتـال لأقاتله ، فقد صدى سيفى من طول انزوائه فى غمده ..

فقالت الأميرة امنريدس بلهجتها الساخرة :

ــ كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضى سنموت وهو يديننى ؟

ــ أتقولين يدينك يا صاحبة السمو ؟ .. يا لها من كلمة ..

وضحكت من دهشـة الحاكم ، وقصت عليه كيف رأت القـافلة ،

وكيف جـذبها زولو الى السفينة حيث انتقت العقد الجميل . وكانت تروى قصتها بلهجة دلت على ما تتمتع به من حرية وجسارة ، وميل الى السخرية والفكاهة ، فزالت دهشة الحاكم خنزر ، وقال لها مداعبا :

ــ لماذا اخترت قلبا أخضر يا صاحبة السمو ؟ .. فانا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود ، ولكن ما معنى القلب الأخضر ؟

فقالت الأميرة ضاحكة :

ــ وجه سؤالك الى بائع القلب ؟

وكان اسفينيس صامتا منصتا تعلوه الكآبة ، فقال :

ــ القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان ..

فقالت الأميرة :

ــ ما أشد حاجتى الى هذا القلب ، لأنى أحس أحيانا أنى قاسية حتى ليلذ لى أن أقسو على نفسى ..

وكان القاضى سنموت يطيل النظر فى تلك الأثناء الى زولو ، وحاول أن يحول انتباه زوج شقيقه اليه ، ولكنها أبت أن تتحول عن صناديق الأحجار الكريمة . فقال القاضى وقد تأفف من منظر القزم : « يا له من مخلوق قبيح .. »

فقال اسفينيس : « انه من شعب الأقزام لا تروقهم صورتنا ، ويعتقدون أن الخالق شوه ملامحها وقبح أطرافها ..

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة ، وقال :

ــ ان قولك هذا أعجب من زولو نفسه ، ومن كل ما تحمل من عريب الحيوان والنفائس .

وقال سنموت وهو يحدج اسفينيس بنظرة ارتياب :

ــ أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته ، فمن المؤكد أن أولئك الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنى للحسن أو القبيح ..

ورنت الأميرة أمنريدس الى القزم كالمعتذرة ، وقالت :

ــ هل تستقبح النظر الى وجهى يا زولو ؟

فعاد خنزر الى قهقهته ، واختلج قلب اسفينيس لما رآه من روعه حسنها وفتنة دلالها ، وقد تمنى فى تلك اللحظة أن يديم اليها النظر . وساد الصمت بعد ذلك ، فأدرك الشاب أنه قد آن وقت الانصراف ، وخشى أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذى يهمه ، فقال للحاكم :

ــ هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع فى تحقيق آمالى فى ظل رعايتك الكريمة ؟

فتفكر الحاكم مليا وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء ، ثم قال :

ــ لقد مل قومنا الحرب والغزو ومالوا الى الترف والنعيم ، وانهم ليترفعون بطبعهم عن التجارة فلا سبيل الى هذه الدرر الثمينة الا بالمغـــامرين من أمثالك . ولكننى لا أحب أن أعطيك كلمتى الآن ، فينبغى أن أحدث قبل ذلك مولاى الملك . وسأرفع الى ذاته العليـــا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقنى على رأيى .

فانشرح صدر اسفينيس وقال :

ــ سيدى الحاكم ، انى أحتفظ لمولانا فرعون بهدية نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا .

فتفرس الحاكم فى وجهه مليـــا ، وخطرت له فكرة يتقرب بها الى مولاه فقال :

ــ فى ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيـــد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ، ومن الممكن أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك ، فتقدم اليه هديتك التى لا شك أنها لائقة بالمقام الأعلى .. فأخبرنى عن اسمك ومقامك ..

ــ ادعى يا مولاى اسفينيس ، وأقيم حيث ترســـو قافلتى على شاطىء حى الصيادين جنوب طيبة .

ــ سيأتيك رسولى فى يوم قريب .

وانحنى الشاب فى اجـــلال عظيم ، وبرح المكان يتبعه عبيـــده .

وكانت الأميرة تنظر فى وجهه وهو يحدث الحاكم عن آماله ويصغى اليه ، وتبعته بنظرها وهو يبرح المكان فعجبت لآى النبل والحسن البـادية على وجهه وقامته ، وأسـفت أن يكون حظه من الدنيـا التجارة وحمل الأقزام . أواه .. كم تمنت أن تجد هذه القـامة فى جسم واحد من قومها الميالين الى البدانة والقصر ، ولكنها وجدتها فى جسم مصرى أسمر يتجر فى الأقزام .. وأحست أن صورة هذا الفتى الجميـل تحرك عاطفة فى نفسها .. فبدت كالغاضبة ، وولت الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو ..

## ١١

وعاد اسفينيس والعبيد فى اثر مرشـدهم الى الحديقة ، فتنسم نسمة من ريح طيبة هدأت من وجدانه الثائر ، وتنفس تنفسة عميقة امتلأ بها صدره ، وكان يعد نتيجة رحلته هذه توفيقا عظيما . ولكنه كان يفكر فى الأميرة أمنريدس ، ويتمثل وجهها النورانى وشـعرها الذهبى وشفتيها القرمزيتين ، والقلب الزمردى المدلى على صدرها الناهد ،.. رباه !.. ينبغى أن يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظل قلبـه وقلبها معا .. وقال لنفسـه انها ربيبة النعيم والحب ، تظن على غير شك أن الدنيا وما فيها رهن اشارة من أصبعها ، جسورا ضحوكا ، ولكنه ضحك مترف لا يخلو من القسـوة ، تضاحك الحاكم وتهزأ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة عشرة ، ولو رأيتها غدا على متن جواد قريش سهما ما حق لى العجب ..

ثم نصح نفسه ألا يستسلم للتفكير فيها ، ولكى يعمل بنصيحته عاود التفكير فى توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر . انه حاكم جبـار قوى عظيم الشجاعة ، ولكنه طيب القلب ، وربما كان عظيم الغباوة أيضا . وان نزاعه الى الذهب عظيم كعامة قومه ، وقد هضمت

الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة شكر .. ولكن هذا الجشع هو الذى فتح له أبواب مصر ، وبلغ به قصر الحاكم ، وسينتهى به قريبا الى قصر فرعون . وكان أحمس يسير على مقربة منه ، فسمعه يهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلا : « شارف » ، فظنه يخاطبه . فالتفت اليه فوجده ينظر الى شيخ هرم يحمل سلة أزهار ويضرب فى الحديقة بخطى واهنة ، وسمع الشيخ الصوت الذى يناديه ، فتلفت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمن يناديه . ولكن أحمس تحاماه وولاه قفاه ؛ فدهش اسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة ، ولكن الفتى خفض بصره ولم ينبس بكلمة ..

وبلغوا السفينة وصعدوا اليها فوجدوا لاتو فى انتظارهم ، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد . فابتسم اسفينيس وقال له : « وفقنا بفضل الرب آمون » . ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف ، فأقبل الشاب عليه يحدثه حديث المقابلة ، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء . فالتفتا الى مصدره فرأيا أحمس متكئا على حائط السفينة ينتحب كالأطفال ، فراعهما منظره ، وتذكر اسفينيس ما غمض عليه من سلوكه فى الحديقة ، فدنا منه يتبعه لاتو ، ووضع يده على منكبه وقال له :

— أحمس ، ما الذى يبكيك ؟

ولكن الفتى لم يجبه ولم يع مما قال شيئا ، واستسلم للبكاء فى حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه ، فانزعج الرجلان وأحاطا به ، وأخذاه الى المقصورة وأجلساه بينهما ، وأحضر اسفينيس له قدحا من الماء وقال له :

— ما الذى يبكيك يا أحمس ؟.. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذى دعوته شارف ؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء : « كيف لا أعرفه ؟.. كيف لا أعرفه ؟.. » .

فسأله فى غرابة : « من هو ؟. ولماذا تبكى هذا البكاء ؟ »

وأخرجه الحزن عن صمته ، فباح بما فى صدره قائلا :

ــ آه يا سيدى اسفينيس ، ان هذا القصر الذى دخلته خادما خدمك هو قصر والدى ...

فبدت الدهشة على وجه اسفينيس ، وتفرس لاتو فى وجهه باهتمام شديد . أما الشاب فاستدرك قائلا وهو فى غيبوبة الحزن الشديد :

ــ هذا القصر الذى اغتصبه الحاكم خنزر هو مهد طفولتى ومرتع صباى ، وبين جدرانه العالية قضت أمى البائسة عهد الشباب والنعيم فى كنف والدى قبل أن تقع القارعة فى أرض مصر ، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة .

ــ ومن كان أبوك يا أحمس ؟

ــ كان أبى قائد جيش مليكنا الشهيد سيكننرع .

فقال لاتو : « القائد بيبى ؟.. يا الهى .. حقا هذا قصر القائد الباسل » .

فنظر أحمس الى لاتو بدهشة وسأله :

ــ هل كنت تعرف أبى أيها السيد لاتو ؟

ــ وهل وجد فى جيلنا من يجهله ؟

ــ ان قلبى يحدثنى بأنك من السادة الذين شردهم الغزو ...

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب ابن القائد بيبى وسأله :

ــ وكيف انتهت حياة القائد الباسل ؟

ــ استشهد يا سيدى فى الدفاع الأخير عن طيبة ، أما والدتى فعملت بوصيته وفرت بى فى جمع من السادة الى حى الفقراء حيث نعيش الآن ، لقد تشتت سادة طيبة الأقدمون ، وتخفى قوم منهم فى أسمال بالية وهاجروا الى حى الصيادين ، وركبت أسرة مليكنا البحر

الى مكان مجهول ، وأغلق معهد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم ، وخلا الجو للبيض الغرباء ذوى اللحى يمشون فى الأرض مرحا ، ويملكون كل شيء . وكان خنزر أسعد القوم حظا فزوجه الملك أخته ، ووهبه ضيعة أبى وقصره ، ونصبه حاكما على الجنوب جزاء ما اقترفت يداه الأثيمتان ...

فسأله لاتو : « وأى ذنب اقترفه الحاكم ؟ »

وكان أحمس سكت عن البكاء ، فقال بلهجة تنطوى على الغضب الشديد :

ــ يده الأثيمة التى أردت مليكنا سيكنزع .

وانتفض اسفينيس كمن مسته نارحامية ، ولم يطق قعودا فانتصب واقفا متوعدا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب فى الأفئدة ، فى حين أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس ، وردد أحمس بصره بينهما فوجد أخيرا من يشاركه عواطفه المضطرمة ، فرفع رأسه الى السماء وتمتم قائلا : « ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسى .. »

وبلغت السفينة مرفأها ، وكانت الشمس تنغمس فى النيل والشفق يخضب الأفق ، فقصدوا الى بيت اباانا ، ووجدوا السيدة تشعل مصباحها . فلما شعرت بمقدمهم تحولت اليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب ، فتقدم منها لاتو واسفينيس وانحنيا لها فى احلال ، وقال الشيخ فى صوت رزين :

ــ طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم بيبى ...

فغاضت الابتسامة من شفتيها ، واتسعت حدقتاها دهشة وانزعاجا ، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب ، وأرادت الكلام فامتنع عليها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه ، وقال لها بحنان :

ــ أماه لا تخافى ولا تحزنى ، وقد علمت ما أولانى هذان السيدان

من الجميل ، واعلمى الى هذا أنهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذين شردهم الطغيان ، نازعهما الشوق الى اجتلاء وجه الوطن مرة أخرى ...

فسكنت نفس المرأة ، ومدت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والاخلاص ، وجلسوا جميعا متقاربين ، وقال اسفينيس :

ــ ان فخرنا لعظيم بالجلوس الى أرملة قائدنا الباسل بيبى ، الذى قضى فى الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل ، والى ابنه الشاب المتحمس أحمس ..

فقالت ابانا : « وانى لجد سعيدة أن تلقى الى المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال العهد القديم ، فنتذاكر معا أيامنا الخوالى ، ونشعر بحاضرنا شعورا واحدا . أما أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه ، وقد دعاه به أبوه تيمنا باسم أحمس حفيد مليكنا سيكننرع وابن ملكنا كاموس ــ وقد ولدا فى يوم واحد ــ طيب الرب مساءه حيثما كان ..

وبسط لاتو كفيه مؤمنا على قولها ، وقال بصدق واخلاص :

ــ ليحفظ الرب صديقنا أحمس ، وليحفظ سميه العظيم حيثما كان ...

## ١٢

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرة ابانا ، فعاشوا جميعا أسرة واحدة لا يفترقون الا فى الثلث الأول من الليل ، وعلم الرجلان أن حى الصيادين مكتظ بالسادة المختفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين ، فسر لذلك الرجلان ، وأرادا أن يتعرفا الى بعض البارزين منهم ، وأفضيا برغبتهما الى أحمس بعد أن استوثقا من اخلاص القوم . ورحب الفتى برغبتهما ، واختار أربعة

من أقرب المقربين الى والدته هم سنب وهام وكوم وديب ، وأسر اليهم بحقيقة التاجرين ، ودعاهم يوما الى داره حيث وافاهم لاتو واسفينيس . وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء ، وزرة وسترة من الكتان بالية ، فرحبوا جميعا بالتاجرين ، وتبادلوا التحيات بحرارة دلت على الصدق والمودة . قال أحمس :

ـ ان من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين ، وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة ، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون ..

وسأل هام التاجرين : « هل أنتما من طيبة أيها السيدان ؟ »

فقال لاتو : « كلا يا سيدى ، ولكنا كنا يوما من ملاك أمبوس.. »

فقال سنب : « وهل هاجر الى النوبة كثيرون مثلكما ؟.. »

فقال لاتو : « نعم يا سيدى ، وفى نباتا خاصة يوجد مئات من المصريين ، من أمبوس وسيين وهابو ومن طيبة نفسها . . »

فتبادل الرجلان النظرات ، ولم يكن يرتاب منهم أحد فى التاجرين بعد ما قص عليهم أحمس ما صنع اسفينيس لأمه فى المحكمة ، فتساءل هام :

ـ وكيف تعيشون فى نباتا أيها السيد لاتو ؟

ـ عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم ، ففى النوبة تجود الأرض بالذهب وتشح بالغلال ..

ـ ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتد اليكم أيدى الرعاة .

ـ دون شك ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين .

ـ ألا يوجد لنا فى الجنوب قوة حربية ؟

ـ بلى ، ولكنها قوة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصرى على حفظ الأمن فى البلاد .

ـ وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو ؟

ـ ان النوبيين يحبوننا ويرضون بحكمنا طائعين ، ولذلك لا يلقى رؤوم أية مشقة فى حكم البلاد بقوة صغيرة لا يعتد بها ، ولو شقوا عصا الطاعة ما وجدوا قوة تؤدبهم ..

فلاحت الأحلام فى أعين الرجال ، وكان أحمس قص عليهم كيف، تمكن التاجران من اجتياز الحدود وزيارة الحاكم ، وكيف أن اسفينيس سيقدم الى أبوفيس هدية يوم الاحتفال بعيـد النصر ، فتساءل هام بامتعاض :

ـ وما تبغى من وراء تقديم هديتك الى أبوفيس ؟

فقال اسفينيس : « أن أثير جشعه ، فيأذن لى بالاتجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب ... »

فسكت الرجال ، وسكت اسفينيس ساعة يفكر ، وبدا له أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل مشروعه ، فقال باهتمام :

ـ أصغوا الى أيها السادة ، ليس هدفنا الذى نرمى اليه التجارة ، وما ينبغى أن تكون التجارة هدف قوم قدموا اليكم فى بيت أرملة قائدنا العظيم بيبى ، ولكنا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة ، وأن نستعين بقوم منكم كعمال فى الظاهر فنحملكم الى اخواننا فى الجنوب . سنحمل الذهب الى مصر ونعود بالحبوب والرجال ، وربما كررنا يوما بالرجال فقط ...

فاستمع الجميع فى دهشة ممزوجة بفرح ، وأشعت أعينهم نورا خاطفا ، وصاحت ابانا قائلة :

ـ رباه !.. ما هذا الصوت الجميل الذى يحيى فى أنفسنا هامد الأمل .!

وصاح هام قائلا : « يا الهى .. ان الحياة تدب فى مقبرة طيبة » .

وهتف كوم قائلا : « أيها الشاب الذى يبعث صوته القلوب الميتة، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل ولا مستقبل ، يئودنا شقاء

حاضرنا فلا نجد منه مهربا الا فى تذكر الماضى المجيد والتحسر عليه ، وها أنت ذا تزيح لنا الستار عن مستقبل باهر ...

فانشرح صدر اسفينيس وأفعم قلبه أملا ، وقال بصوته الجميل المثير :

ــ لا ينفع البكاء أيها السادة ، فان الماضى المجيد يوغل فى القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسر عليه ، وما يلبث مجده أن يصبح قريبا اذا توثبتم للعمل له . فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجارا ، فانكم فى الغد القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض وتذل لهم الحصون ، ولكن أصدقونى هل تثقون باخوانكم جميعا ؟

فقالوا فى نفس واحد : « ثقتنا بأنفسنا .. »

ــ ألا تخشون العيون ؟

ــ ان الرعاة جبابرة بغيرعقول ، وقد اطمأنوا بقوتهم الىاستعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون .

فصفق اسفينيس بيديه فرحا وقال :

ــ اذهبوا الى اخوانكم المخلصين وبشروا بالأمل الجديد ، واجمعوا بيننا وبينهم فى كل حين لنتبادل الرأى والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب ، واذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين فأولى بكم الغضب ...

فأمن الرجال على قوله متحسين ، وقال تايب : « نحن غاضبون أيها الشاب النبيل ، وسيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضبا من اخوان نباتا ... »

وحيوا التاجرين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن ، وسمع الرجلان ابانا تتنهد وتقول :

ــ رباه !.. من يدلنا على أسرة مليكنا الشهيد ؟.. وفى أى ركن من الأرض هو ؟..

ومضت أسابيع وكان اسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان

الراحة . كانا يجتمعـان برجال طيبـة المتخفين فى بيت ابانا ، وكانا يكاشفانهم بآمال المصريين المهاجرين فيبثان فى نفوسهم الأمل والحياة ، ويصبان فى عزائمهم القوة والجلاد ، حتى بات حى الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التى يدعى فيها اسفينيس الى القصر الفرعونى .

وتوالت الأيام حتى كان يوم جاء حى الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو اسفينيس ، ثم سلمه كتابا من الحاكم يجيز له دخول القصر الفـرعونى فى سـاعة سماها من يوم العيد ، ورأى كثيرون الرسـول فابتهجوا وشـملهم السرور ، وأشرق فى نفوسهم الأمل ..

وفى ذلك المساء نامت القافلة ، ولبث اسفينيس منفردا على ظهر السفينة فى هدأة الليل وجلال السكون ، يغمره نور القمر ويسيل على وجه النيـل دررا ولؤلؤا لامعا متوهجا ، فدخلته رقة ، وأثلج صدره الرضا ، وطاب لخيـاله أن يتردد بين الماضى القريب والحاضر الغريب . فتمثل ساعة الوداع فى نباتا ، وجدته توتيشيرى تبشره بأن روح آمون أوحت اليها أن ترسله الى مصر ، وقد وقف أبوه كاموس قريبـا منه يوصيه بصـوته الجهورى المؤثر ، وذكر أمه الملـكة ستكيموس وهى تلثم جبينه ، وزوجه نيفرتارى وهى تلقى عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلة .. فلاحت فى عينيه نظرة حنان كنور القمر فى صفائه وحيائه ... ونفذت قطرات من الحسن المنبث ما بين السماء وماء النيل الى قلبـه ، فانتعش وانتشى بخمر الهية . ولكن طرقت مخيلته خلسة صـورة من النور والبهاء ، فاقشـعر بدنه ، وأغمض جفنيـه كأنما يفر منها فرارا ، وهمس لنفسـه بامتعاض : « يا الهى ... انى أذكرها أكثر مما ينبغى .. وما ينبغى لىُ أن أذكرها بتاتا .. »

## ١٣

وجاء يوم العيد ، فلبث اسفينيس فى السفينة نهـار اليوم ؛ وعند المساء لبس أجمل ماعنده من الثياب ، ورجل جمته ومس طيبا ، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقا من العاج ، وهودجا مسدل الستائر ، وساروا فىطريق القصر . وكانت طيبة ساهرة تضج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغانى ، وينير القمر منها سبلا اكتظت بجماعات الجنود السكارى المنشدين ، وعربات الأعيان والنبـلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعونى يتقدمها الخدم حاملين المشاعل ، فتولت الشاب كآبة ثقيلة ، وقال لنفسه محزنا : « قضى على أن أشارك القوم عيدهم الذى يحيون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكننرع » . وصوب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة ، وذكر قول الحكيم قاقمنا : « الجنود اذا تعودوا الشراب ، وهنت سواعدهم وعافوا القتال » .

ثم تابع تيار السـائرين حتى شارف ميدان القصر ، ولاحت لعينيه أسواره ونوافـذه نورا فوق نور ، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبـه بعنف ، ونسمت على رأسه المحمـوم ريح عبقـة عاطرة من ذكريات الصبا ، وجدت قلبه حزينا ونفسه والهه . ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا ..

واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزر . فنظر فيه بامعان ، ثم نادى أحد الحراس وأمره أن يقود التاجر وقافلته الى مكان الانتظار بالحديقة . فتبعه الشاب وعرج وراءه الى أحد ممرات الفناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس . وكان اسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى ، وكأنما فارقه أمس آخر مرة . وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدى الى الحديقة ، اشتد وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر ، وذكر كيف كان يلعب فى هذا

الممر مع نيفرتارى ، فيشــد على عينيه حتى تخفى نفســها وراء أحد الأعمدة الهائلة ، ثم يحل العصابة ويجد فى البحث عنها حتى يظفر بها . وخال فى اللحظة أنه يســمع وقع قدميها الصغيرتين ، ويســمع رجع ضحكتها الحلوة . وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد ، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتى الآن ؟... وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضى الجميل ، ولكن الرجل كان بوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه .. فبلغوا الحديقة ، وأشار الحارس الى أريكة وقال للشاب : « انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول » . وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة ، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان وربا الزهور ، فبحثت عينــاه عن الموضع الذى كان يقــوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممر المعشب الذى يشق الحديقة نصفين ، فوجد مكانه تمثالا جديدا لا روح فيه ، يمثل شخصا ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واســعتين جاحظتين ، فلم يشك فى أنه أمام أبوفيس ملك الرعاة . فأدام اليه النظر شزرا ، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق ، وكان كل شىء من القصر والحــديقة كعهده به . ولاحت لعينيه الحجرة الصيفية على هضبة عالية ، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشــيقة الطويلة ، فذكر أيامها السعيدة ، حين كانت تهرع اليها الأسرة جميعا فى فصل الصيف والربيع ، فينهمك جــده وأبوه فى لعب الشطرنج ، وتجلس نيفرتارى بين الملكة ستكيموس وجدتها الملكة أحوتبى ، أما هو فيقعد فى حجر توتيشــيرى ، ثم تمضى الساعات وهم فى شغل عنها بالســمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة . جلس اسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صــفحات الحديقة والممرات والأروقة ، فلم يتململ ولم يجزع ، حتى جاءه الرسول وسأله : « هل أنت مستعد ؟ .. » . فقام واقفا وهو يقول : « على تمام الاستعداد يا سيدى .. » . فقال وهو يهم بالعودة : « اتبعنى » . فتبعه ورجاله على

الأثر ، وارتقوا أدراج السلم ، وقطعوا الرواق الفرعوني حتى شارفوا باب البهو الملكي ، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول . وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية ، ووقع الأقدام الراقصة ، وسجع الموسيقى العنيف، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار، فأدرك أن القوم لا يتحرجون في لهوهم ولا يعتدلون في أعيادهم ، وأن الملك يعفيهم من الوقار والتأدب ليعودوا الى فطرتهم الوحشية الأولى . ثم نادى باسمه أحد العبيد ، وتقدم بخطى متئدة ، ورأى وسط البهو خاليا ، والقوم جلوسا حوله في ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون اليه باهتمام ، فدخله شيء من الارتباك ، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم به عنه وعن هداياه لتعظم مآثره في عين الملك ، واستبشر بذلك خيرا . ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف ، ودنا وحده من العرش وحنى هامته اجلالا ، وقال بصوت الخضوع والعبودية :

ـــ مولاى الرب المعبود ، سيد النيل ، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين .

فقال له الملك بصوت جهوري قوى النبرات :

ـــ انى أمنحك السلام أيها العبد .

واعتدلت قامة اسفينيس ، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة الى الرجل المتربع على عرش آبائه وأجداده ، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك . ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنه ثمل . وكانت الملكة تجلس الى يمينه ، والأميرة أمنريدس الى شماله ، وقد لحظها الشاب فرآها في لباسها الملكي كالكوكب المتألق ، وكانت تنظر اليه في هدوء وكبرياء ...

وألقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلا بصوته الغليظ :

ـــ وحق الرب أن هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء ...

فأحنى اسفينيس رأسه وقال :

ــ شاء الرب أن يجعله لمولى من موالى فرعون .

فقهقه الملك ضاحكا وقال :

ــ أراك تحسن القول ، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا وتقودنا ... وهي حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القوى . . . وحسن البيان للعبد الضعيف . ولكن لا عليك من هذا فقد قال لى صديقنا خنزر انك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة ... أرنا هديتك ..

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانبا ، ثم أشار الى رجاله فتقدم اثنان منهم بالصندوق العاجى ووضعاه أمام العرش، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجا فرعونيا مزدوجا من الذهب الخالص مرصعا بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان ، ورفعه بين يديه فخطف الأبصار ، وانبهر له القوم جميعا وضجوا بالدهشة والاستحسان . وأما أبوفيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين ، وخلع تاجه دون شعور منه ، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع ، فتبدى صورة جديدة من الجلال . واغتبط الملك ولاح فى وجهه الرضا ، فقال للشاب :

ــ أيها التاجر ، ان هديتك قد حازت القبول .

فانحنى اسفينيس اجلالا ، والتفت الى رجاله وأشار اليهم اشارة خاصة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج ، ورئى الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين . وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة فى نفوس القوم جميعا ، فقام أكثرهم واقفين ، واشرأبت الأعناق . وصاح بهم التاجر الشاب أن حيوا مولاكم فرعون ، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفا ، ثم اقتربوا من العرش فى خطى ثابتة وئيدة ، وسجدوا بين يدى فرعون ثلاثا ، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شىء . وهتف الملك قائلا :

ــ أيها التاجر ما عسى أن تكون هذه المخلوقات ؟ ... .

ـــ هى أناس يا مولاى تعيش قبائلها فى أقاصى النوبة الجنوبية ، ولا يصدقون أن العالم يشتمل على أقوام سواهم . فاذا رأوا واحدا منا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجبين . وقد ربيت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم ، وسيجدهم مولاى مثالا للطاعة والعبودية ، ونوعا من التسلية والتلهية .

فهز الملك رأسه الكبير ، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال :

ـــ جهل من يدعى العلم كله ، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا ، وانى أمنحك رضاى ...

وحنى اسفينيس هامته ، ثم ارتد بظهره راجعا . وعند منتصف البهو اعترض سبيله انسان ما ، فقبض على ذراعه . والتفت اسفينيس الى صاحب اليد الغليظة ، فرأى رجلا فى الثياب العسكرية الفخمة ، جميل العثنون غليظ الشاربين منتفخ الأوداج ، دل احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون فى نظرة عينيه على شدة سكره ، وقد حيا مولاه وقال :

ـــ انه ليسر مولاى على غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل فى الحفلات القومية ، كما تقضى به تقاليدنا المقدسة . وانى أدخر لذات مولاى المقدسة مبارزة دموية تسر الناظرين .

فقال الملك وهو يرفع كأسه الى شفتيه الغليظتين :

ـــ ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفض عن النفوس ما ران عليها من سأم .. ولكن من السعيد الذى شرفته بعداوتك أيها القائد رخ ؟

فأشار القائد الثمل الى اسفينيس وقال :

ـــ هذا غريمى يا مولاى ..

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء ، وسأله الملك :

ـــ كيف استجلب غضبك هذا التاجر النوبى ؟

ـــ أنقذ امرأة فلاحة ـــ تجاسرت على توجيه الاهانة الى شخصى ـ من العقاب ، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلا منها .

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة ، وسأل القائد :

ــ ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحا ؟

ــ أراه يا مولاى متين البنيان مفتول العضلات ، فاذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فانى أغضى عن وضاعة جنسه ، مرضاة لمولاى ومشاركة فى سرور العيد .

ولكن الحاكم خنزر لم يرض عن المبارزة ، وقد رمق شقيقه القاضى سنموت بنظرة لوم ، لأنه أدرك أنه هو الذى دل القائد على اسفينيس دون تقدير منه للموقف ، وأشفق من أن يضيع سيف رخ عليه كنز النوبة الثمين ، فدنا من القائد وقال له بحزم :

ــ لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيها القائد .

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله :

ــ اذا كان من العيب أن أقاتل فلاحا ، فمن العار أن أترك عبداً يتحدانى دون أن أنزل به العقاب الذى يستحقه . ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه ، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه ...

وظن من سمع قول القائد أنه حق وعدل ، وتمنوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتموا سرورهم بالعيد . وكان اسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجا ، وكان يشعر بتلهف القوم على استماع كلمته ، ويحس نظرة التحدى والاحتقار التى يصوبها نحوه القائد الثمل العنيد ، فيغلى الدم فى عروقه . ثم يذكر نصائح توتيشيرى ولاتو ، وكيف ان قتله هذا القائد الفظ قد يضيع من يديه الثمرة الدانية القطوف ، ويفوت على أسرته الفرصة السانحة ، فيبرد دمه وتخذله عزيمته . رباه ! .. لا محيد عن النكوص ، ولا محيص عن الهرب . سيتهكم به القائد ، وترمقه الأعين بالاحتقار ، ويفارق المكان منكس الذقن كسير الفؤاد ، ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :

ـ لقد تحديتنى أيها الفلاح فهل تستطيع مواجهتى ؟

فسكت اسفينيس شاعراً بانهيار وتخاذل ، وسمع صوتا يقول : « دعوا الشاب انه لا يعرف القتال » . وقال صوت آخر : « دعوا الشاب فان الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه ... » . فدخله الحنق ، وأحس يدا توضع على كتفه وصوتا يقول له : « لست فارسا ولا عار عليك اذا اعتذرت » . فنظر فرأى خنزر ، فشعر بقشعريرة تسرى فى اعضائه من لمس اليد التى فتكت بجده . ولاحت منه نظرة فى تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمنريدس تنظر نحوه باهتمام ، فغلبه الغضب وفقد وعيه ، فقال بصوت مسموع :

ـ اننى أشكر القائد على نزوله لمبارزتى ، وأقبل اليد التى يمدها لى .

وسرى الفرح فى النفوس ، وضحك الملك وشرب كأسا أخرى ، وتطلعت الرءوس من كل حدب وصوب للغريمين . وبدا الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفى والانتقام ، ثم سأل اسفينيس : « هل تضارب بالسيف ؟ » فحنى رأسه أن نعم ، فأعطاه سيفا . ثم خلع اسفينيس عباءته عن سترته وسرواله ، فبدا جسمه الطويل القوى يجذب الأبصار برشاقته واعتدال قامته وجمال وجهه . وأعطى ترسا ، فقبض على السيف بيمناه ، ووضع الترس على يسراه ، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التى أغلقت عليها أبواب المعابد ..

وأذن الملك بالقتال ، فشهر كل منهما سيفه . وبدأ القائد الغاضب الهجوم فسدد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنها القاضية ، ولكن الشاب تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت فى الهواء . ولم يمهله القائد فوجه الى رأسه ضربة أشد من الأولى بسرعة البرق ، فتلقاها الشاب بترسه بحركة خاطفة ، فتعالت أصوات الاعجاب من انحاء البهو جميعا . وأدرك القائد أنه يقاتل رجلا يجيد الطعان ، فأخذ حذره ، وعاود القتال متبعا خطة جديدة ، فتصاولا ، واشتبكا وانفصلا وكرا وفرا ، القائد فى غضب وعنف ، والشاب فى هدوء عجيب . وكان يصد هجمات

عدوه بسهولة ويسر وثقة ، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه اهتيـاجا وجنونا . وأدرك الجميع أن اسفينيس يكتفى بالدفاع ولا يكاد يهجم الا اذا أراد بهجومه افساد خطـة أو تفويت ضربة ، فتجلى فنه ، وبرع على خصمه فى الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذة القتال فوارق الأجناس . فجن جنون رخ ، ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا ينى ولا يتوانى ، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة ، فصد بترسه ما صد ، وتفادى بفنه ماتفادى منه ، ولبث سليما مطمئنا ذا ثقة لا حد لها ، لا يغضب ولا يؤخـذ ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولى على القائد الحانق ، وشعر بدقة موقفه وشـدة حرجه ، وحثه اليأس على المغامرة ، فرفع ذراعه بالسيف ، وجمع كل ماأعطى من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام ، وكان مطمئنا الى خطة عدوه المقصورة على الدفاع . فما هو الا أن وجه الى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه ، وارتجفت يده ، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدا ، فسقط قريبا من عرش فرعون . ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده ، لايكف عن حنقه . فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه ، ثم صاح به القائد :

— لماذا تبطىء فى الاجهاز على أيها الفلاح !

فقال اسفينيس بهدوء :

— ليس لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك ...

فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية ، ثم دار على عقبيه وبرح البهو . وعلت ضحكة الملك طويلا حتى اضطرب لها جسمه ، ثم أشار الى اسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه الى أحد الحجاب ، واقترب من العرش وانحنى للملك ، فقال له :

— ان قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك ... كيف تعلمت القتال ؟

ــ أيها الملك المعبود ، فى بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته اذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه ...

فقال الملك :

ــ يا لها من بلاد ... وقد كنا مقاتلين أشداء رجالا ونساء حين كنا نجوب أطراف الصحراء الشمالية الباردة ، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا فى ظلال الترف والنعيم ، وشربنا بدل الماء الخمور ، طاب لنا السلام ، ورأيت واحدا من قواد جيشى ينهــزم فى قتاله مع تاجر من الفلاحين ...

وكان الملك يتكلم متهلل الوجه ضاحك الفم ، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحية وقال :

ــ مولاى هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهز فرعون رأسه الثمل وقال :

ــ صدقت يا خنزر ، كان القتال عادلا شريفا ، وانى أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

ــ مولاى .. ان هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدى للعرش أجل الخدمات ، بأن يحمل اليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .

فنظر الملك الى الحاكم مليا ، وذكر التاج الذى يتوج رأسه ، فقال بلا تردد :

ــ قد أذنا له فى ذلك ..

فانحنى خنزر شاكرا ، وسجد اسفينيس بين يدى فرعون ، ومد يده فلثم حاشية ثوبه الملكى . ثم وقف فى خشوع وهو يقاوم رغبة فى النظر الى شمال العرش ، ورجع القهقرى حتى غيبه باب البهو الكبير . وكان مسرورا مبتهجا ، ولكنه كان يسائل نفسه : « ترى ماذا يقول لاتو اذا علم بقصة المبارزة ؟ .. »

وبلغ اسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل ، فوجدوا لاتو

ساهرا يترقب ، فأقبل على الشاب قلقا متشــوقا الى سماع أخباره ، فقص عليــه اسفينيس ما صادفه فى القصر من النجاح والمتــاعب ، فقال لاتو :

ــ لنحمــد الرب آمون على ما أولانا من نجاح ، ولكنى أخون واجبى اذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيرا باستسلامك للغضب والكبرياء ، وما كان ينبغى لك أن تعرض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب . أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك ؟ .. أو ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك ؟ .. ينبغى أن تذكر دائما أننا هنا عبيد وهم سادة ، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه ، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والاخلاص لهم ، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذى وجه الى جدك العظيم والى مصر جميعا الضربة القاضية . افعل هذا من أجل مصر ، ومن أجل من تركناهم وراءنا فى نباتا يخشون ويرجون ..

ولم يتمالك الرجل فأجهش فى البكاء ، ثم مضى الى مخدعه فصلى صلاة حارة ..

وفى صباح اليوم التالى قصدا الى كوخ الســيدة ابانا كما وعدا أصحابهما من قبل، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحمس وبعض الأصدقاء، بينهم سنب وهام وديب وكوم ، وكانوا جميعا قلقين متلهفين على سماع الأخبار ، فقال لهما هام :

ــ ان قلوبنا قلقة يعذبها الخوف ويلهبها الأمل ، وقد تركنا وراءنا فى الأكواخ القريبة المئــات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفــن طوال الليلة الماضية .

فابتسم اسفينيس ابتسامة حلوة ، وقال :

ــ أبشروا ياأصدقاء ، لقد أذن لنا الملك فى الاتجار بين مصر والنوبة .

فلاح البشر فى وجــوههم ، وتألقت أعينهم بنــور الرجاء ، وقال لاتو بحزم :

ـــ جاء وقت العمل فلا تضيعوا الوقت هباء ، واعلموا أن الطريق طويل فينبغي أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال . لا تتوانوا عن اغراء العامة بالاشتراك فى رحلتنا ، ومنوهم بالربح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة ، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود. وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعا ... هلموا جميعا فاحزموا أمتعتكم ...

وانتشرت فى الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم فى جوانبها الحماسة والايمان ، وهرع الرجال المتخفون فى ثياب الصيادين الى السفن ، وشغلوا كل مكان يمكن أن نشغل من أسطحها وبطونها . ثم واجهت اسفينيس مشكلة عسيرة وهى ارحال النساء والأطفال ، وشغلهن أماكن أحق بها الرجال والشبان ، أو تركهن وحدهن على ما فى هذا من ايلام لهن ولذويهن . ورأى الشاب أن يثير المسألة ، فشاور فيها أصدقاءه الأقربين ، وطال الأخذ والرد ، حتى انبرى أحمس بن ابانا فقال :

ـــ أيها السيد اسفينيس نحن فى حاجة الى جيش عرمرم من الرجال ، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجنيد هذا الجيش العظيم ، وما يضيرهن أن يمكثن فى طيبة حتى نعود اليهن عودة الظافرين . وانه لأدعى الى حماستنا أن نقاتل وفى البلاد نساؤنا ، من أن نخلفهن وراءنا فى النوبة . واذا كان فى هذا الرأى ألم لنا ، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية فى سبيل غرضنا الأسمى ...

وبلغ التأثر بابانا مبلغا عظيما فقالت :

ـــ نعم الرأى الحكيم ... ان مكاننا هنا ، وسنقاسم أهل طيبة حظهم : ان موت فموت وان حياة فحياة ...

ولم يتردد أحد عن القبول ، ورضى النساء بفراق الأزواج والأبناء ، وكاد جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال ..

وكان اسفينيس لا يذوق الراحــة فى تلك الأيام القــلائل الحافلة بجلائل الأعمــال والتفديات الصامتة ، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين . وكان الى هذا يعلل نفسه بالآمال ، ويذكر الحاضر والمستقبل ، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة فى الانتقام. وكان الى هذا وذاك يكتم أشواقا تضطرم فى فؤاده ، ويغالب لواعج الوجدان التى باتت تأكل صدره وكبده ، ويضنى بما يعترك فى نفسه من أسباب البغضاء وقوى المحبة .. فلشد ما جاهد وتحمل فى تلك الأيام القلائل ، ولشد ما تجلد وتصبر ...

## ١٥

وأذن أخيرا حاكم الجنوب لأســفينيس بالرحيل ، وأعطاه جوازا لعبور الحدود فى أى وقت يشاء . فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب ، وكان اسفينيس ولاتو وأحمس بن ابانا يأخذون مجالسهم فى مقصــورة السفينة الأولى وفى قلوبهم شــوق وحنين ، وفى عينى أحمس دموع هى آخر ما ودع به أمه . وكان اسفينيس يغرق فى أحلامه ، فذكر طيبة وأهل طيبة ، طيبة أعظم مدن الأرض ؛ المدينة ذات الأبواب المائة ، والمسلات التى تناطح الجوزاء ، والمعابد الهــائلة والقصور الشم ، والســبل الطويلة والميادين العظيمة ، والأسواق التى لا تهدأ ولا تسكن آناء الليــل وأطراف النهــار ؛ طيبة المجيــدة ، طيبة آمون الذى قضى أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر ؛ طيبة التى حكمها الهمج أخيرا وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء ، واستعبدوا أهلها فالدهر يمرغ وجوههم فى ثرى من كان بالأمس لهم عبدا . وتنهدُ الشاب من قلب مكلوم ، ثم ذكر الرجال الجاثمين فى بطون ســفنه يحدوهم أمل واحد ، ويدفعهم الى الأهوال حب لمصر مكين توارثوه جيــلا بعد

جيل . كم يعانون من ألم الفراق لمن خلفوا وراءهم بين أيدى أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال ، وكأنهم جميعا هذا الفتى الباسل أحمس الذى يكظم أشواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوة... ثم طافت بذهنه فى حشد الذكريات صورة ذات بهاء ، فأطرق ليخفى عينيه عن لاتو الثاقب البصر ، ولو علم الرجل فيم يفكر لغضب مرة أخرى ، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أول مرة . وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها ، وكيف لا تنفك تنزع اليها . وتساءل متحيرا هل يمكن أن يجتمع الحب والكراهية لشيء واحد ؟.. ولاحت فى عينيه نظرة حزينة ، وقال لنفسه : مهما يكن أمرى فلن تقع عيناى عليها مرة أخرى فلا داعى للقلق ، وهل وجد فى الدنيا شيء يعز على النسيان ؟. وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلت على القلق :

ـــ انظر الى الشمال ... أرى قافلة قادمة على عجل ..

فنظر الشابان الى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشق عباب الماء بسرعة ، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها ، فعاين اسفينيس رجلا يقف فى مقدمة القافلة فعرفه ، وقال بقلق :

ـــ هذا القائد رخ ...

فامتقع لاتو ، وقال وقد تزايد اضطرابه :

ـــ ترى هل يبغى اللحاق بنا ؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه ، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر ، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق :

ـــ هل يجيء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا ؟

وأدرك اسفينيس أنه لم يخلص بعد من عواقب خطئه ، وأن الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت بر الأمان والسلامة . وصوب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتى جاوزت بعض سفن

قافلته ، واذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس ، ولم تجىء لخير بلا شك . ثم اتجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها ، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية ، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ :

ـ قف وألق مراسيك .

وغيرت السفن اتجاهاتها لتحاصر القافلة ، فأمر اسفينيس بحارته أن يكفوا عن التجديف وأن يلقوا المراسى ، فأذعنوا لما أمروا ، وقد تولاهم الخوف لما رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكى السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربية . واشتد القلق بأسفينيس ، وأشفق من أن ينكل القائد الحقود بقافلته فيئد أمل قومه جميعا ، وقال لرفيقه :

ـ اذا كان هذا الرجل يريد رأسى فلا بأس أن أكون أول صرعى الكفاح الجديد ، وما عليك يا لاتو اذا قضيت الا أن تستأنف المسير ، دون أن تمكن للغضب من نفسك فتقضى على آمالنا جميعا ...

فشد الشيخ على يده وقد اسودت الدنيا فى عينيه ، واستدرك اسفينيس قائلا بحزم :

ـ انى أوصيك يا لاتو بما أوصيتنى به بالأمس من تجنب الغضب غير الحكيم ، دعنى أدفع ثمن خطئى . ولئن تعد غدا الى أبى فتعزيه عن موتى وتهنئه بمن حملت اليه من جنود مصر ، لخير من أن تعود بى اليه وقد خسرنا أملنا الى الأبد ...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلا : « اخرج الى سطح السفينة أيها الفلاح » ، فشد الشاب على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين ، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته :

ـ لقد أطحت بسيفى أيها العبد المفتون وأنا ثمل أترنح ، وهأنذا أنتظرك وقلبى ثابت وساعدى غير مرتعش .

فأدرك الشاب أن القائد ذو طبيعة انتقامية ، وأنه يريد أن ينازله

ليغسل العار الذى لحقه منه ، فقال له بهدوء وقد دخله شيء من الطمأنينة على قافلته :

ــ هل ترغب فى أن تعيد الكرة أيها القائد ؟

فقال بقحة :

ــ نعم أيها العبد ، وسأقتلك بيدى هذه المرة شر قتلة .

فسأله اسفينيس فى هدوء :

ــ وأنا لا أخشى نزالك ، ولكن هل تعد بألا تمس قافلتى بسوء مهما تكن عاقبة المبارزة ؟...

فقال القائد باحتقار :

ــ سأترك القافلة احتراما لمشيئة مولاى فتسير دون جثتك .

ــ وأين تريد القتال ؟

ــ على ظهر سفينتى .

فلم ينبس الشاب بكلمة ، وقفز الى قارب وجدف بساعديه القويين حتى بلغ سفينة القائد ، ثم ارتقى السلم الى سطحها ووقف أمام عدوه وجها لوجه . فألقى عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة ، وأشار الى جندى من الجنود فأعطى للشاب سيفا وترسا ، وقال له القائد وهو يتحفز للقتال : « لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك » . ثم هجم عليه كالوحش الضارى فاشتبكا فى قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين بالسلاح ، وعلى مقدمة السفينة الأخرى وقف لاتو وأحمس يشاهدان المعركة ببصر زائغ ... وتتابعت ضربات القائد فصدها اسفينيس بمهارته الفائقة ، ثم وجه الى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه فصكته بعنف بدا عليه أثره ، فانتهز الشاب الفرصة وبدأ هجومه عليه بشدة وحذق ، فاضطر القائد الى التقهقر ، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التى يسددها اليه خصمه المقتدر الذى لم يهيىء له فرصة يستريح فيها أو يعاود الهجوم ، وتبدى الحنق على

وجه الرجل وصر بنواجذه بغضب جنونى ، فارتمى على خصمه يائسا . ولكن الشاب تفادى منه ووجه اليه ضربة رشـيقة أصابت عنقه ، فتخاذلت يداه ، وكف عن القتال ، وترنح كالثمل ثم سقط على وجهه يتخبط فى دمه . فصرخ الجنود صرخة غاضـبة ، وسلوا سـيوفهم الطويلة وتحفزوا للانقضاض على الشاب لدى أول اشارة تصدر من الضابط الذى على رءوسهم . فأيقن اسفينيس بالهلاك ، وأدرك عبث المقاومة ولا سيما أن كثيرين كانوا يسددون نحو قلبه قسيهم ، فلبث يترقب مذاق الموت مستسلما وعيناه لا تفارقان القائد الطريح أمامه . وفى تلك اللحظة المزعجة الراهبة سمع صوتا قريبا يصيح بغضب : « أيها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم .. » وخيل اليه أنه يعرف الصوت فانخلع قلبه فى صدره ، والتفت الى مصدر الصوت فرأى سفينة فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكىء الأميرة أمنريدس ، تلوح على وجهها الجميل آى الغضب ...

* * *

وأغمد الجنود سـيوفهم وأدوا التحية ، فحنى اسفينيس هامته اجلالا قبل أن يفيق من دهشته ويصـدق حقا أنه نجا من الموت ، وسألت الأميرة الضابط قائلة :

— هل قتل القائد رخ ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحص عنقه ، ثم وقف قائلا :

— أرى جرحه شديد الخطر ياصاحبة السمو ولكن به نفس يتردد.

فسألته ببرود :

— وهل كان القتال عادلا ؟

— نعم يا صاحبة السمو .

فقالت الأميرة بغضب :

ــ كيف اذن سولت لكم نفوسكم الهم بقتل رجل أعطاه الملك الأمان ؟...

ولاح الارتباك فى وجه الضابط ولم ينبس بكلمة ، فقالت الأميرة بلهجة آمرة :

ــ أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح الى أطباء القصر ...

وأذعن الضابط لما أمر فترك اسفينيس حرا ، فهبط الشاب الى قاربه ووجهه الى السفينة الفرعونية ، وهو يقول لنفسه بارتياح : « كيف جاءت الأميرة فى الوقت المناسب ؟.. » . ثم صعد الى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس ، وصادف الأميرة قد عادت الى مقصورتها فمضى اليها بقدمين ثابتتين ، وطلب من جارية أن تستأذن له فى الدخول . فغابت فى الداخل لحظة ثم جاءت بالاذن ، فدخل خافق القلب ، ورأى الأميرة تجلس الى متكأ وثير مسندة ظهرها فى رخاوة الى نمرقة محشوة بالقز ووجهها يشع نورا سنيا ، فانحنى بين يديها فى اجلال صادق ، ورأى وهو يعتدل واقفا عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها ، فتورد وجهه . ولم يغب عنها شىء مما ينطق به وجهه وعيناه ، فقالت بصوت رخيم عذب وهى تشير بأنملتها الى العقد :

ــ أجئت تسألنى ثمن هذا العقد ؟

فاطمأن الشاب الى لهجتها العذبة ، وسر بدعابتها وقال باخلاص :

ــ بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصا على ما أوليتنى من نعمة الحياة ، التى سأظل مدينا لك بها ما حييت ...

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت فى ثغرها كومضة البرق ، وقالت :

ــ نعم أنت مدين لى بحياتك . ولا تعجب اذ أقول هذا فلست ممن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع ، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك ، فلحقت به

فى السفينة وشهدت جانبا من قتالكما ، ثم تدخلت فى الوقت المناسب لانقاذ حياتك ..

فوقع هذا المن من قلبه موقع الماء من الصادى ، ووجد فى نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها فى انقاذ حياته ، ما جعله ينتشى بخمر السعادة ، وسألها :

ــ هل أطمع فى أن تصارحنى مولاتى ، عما أعهده فيها من كراهية للرياء والتصنع ، بالسبب الذى جعلها تجشم نفسها تعب انقاذ حياتى ؟..

فقالت فى استرسال وكأنها تسخر مما ظن أنه أحرجها به :

ــ أن أجعلك تدين لى بحياتك ..

ــ هو دين يسعدنى ولا يفقرنى ..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى أحس أنه على وشك أن يترنح ويقع على قدميها ، وقالت :

ــ يا لك من مراء كذوب .. أهذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها ؟..

ــ كلا يا مولاتى بل لسفرة لها معاد قريب ..

فقالت وكأنها تحدث نفسها :

ــ انى أسائل نفسى عما عسى أن يكون انتفاعى بهذا الدين ؟..

ووجب قلبه ، ونظر الى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من الحياة التى وهبته اياها ، وأحس أن ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب اليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا ، ففقد لبه وهوى على قدميها ..

ثم سألته وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبى على جبينها الأغر وأذنيها :

ــ هل تغيب طويلا ؟

فقال وهو يتنهد :

ــ شهرا يا مولاتى .

فلاحت فى عينيها نظرة حزن وقالت :

ــ ولكنك تزمع العودة .. أليس كذلك ؟

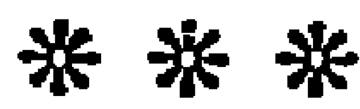
ــ نعم يا مولاتى وحق حياتى التى هى لك.. وحق هذه المقصورة المقدسة ..

فمدت اليه يدها وقالت :

ــ الى الملتقى ..

فلثم يدها وقال :

ــ الى الملتقى ..



واستقبله لاتو بذراعين مفتوحين وعينين دامعتين وضمه الى صدره ، وتعلق أحمس بعنقه ولثم جبينه . ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان ، ووقفوا يودعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهى توغل فى الشمال وهم يوغلون فى الجنوب ، حتى ارتدت عنها الأبصار كليلة ..

وعادوا الى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأن شيئا لم يقع ..

وجعل اسفينيس يعلل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوى الأجسام النحاسية ، ولكن قلبه كان ينزع به الى المقصورة ، هل يداخل لاتو شك ؟.. ان لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كل شىء الا حب مصر ، وهو نفسه لا يخلو من هم يساوره ولا يدرى أأخطأ أم أصاب ، ولكن مَن من بنى الانسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدر له من قبل دون حسبان لما يجد من الأمور ؟.. فلرب قاصد الى جبل يجد نفسه منحدرا فى واد عميق ، ولرب مزمع صيد أراش له نبلا يلقى الصيد منقضا عليه ومطارده ..

# ١٦

واجتازت القافلة حدود مصر فى سلام ، فصلى رجالها للرب آمون صلاة جامعة حارة ، وشكروا ربهم على ما هيأ لهم من سبل النجاة ، ودعوه أن يدنى اليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كل سوء . وصعدت القافلة فى النهر أياما وليالى حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام ، فدعا لاتو الرجال الى النزول الى أرض الجزيرة ، ووقف بينهم واسفينيس الى يمينه ثم قال لهم :

ـ أيها الاخوان ، دعونى أصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم ، ألا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكننرع اليكم ، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن فى نباتا ..

فلاحت الدهشة فى وجوه الرجال ، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح :

ـ أحق أيها السيد لاتو أن أسرتنا الفرعونية فى نباتا ؟

فحنى رأسه بالايجاب مبتسما ، فسأله آخرون :

ـ هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيرى ؟

ـ نعم .. وستباركم فى الغد القريب .

ـ ومليكنا كاموس بن سيكننرع ؟

ـ نعم وسوف ترونه بأعينكم ، وتستمعون اليه بآذانكم .

ـ وولى العهد أحمس ؟..

فابتسم لاتو وأشار الى اسفينيس ، ثم حنى هامته قائلا :

ـ اليكم أيها السادة ولى عهد المملكة المصرية ، حضرة صاحب السمو الفرعونى الأمير أحمس .

وتصايح كثيرون : « التاجر اسفينيس هو ولى عهد مصر الأمير أحمس ؟ .. » أما أحمس ابانا فقد سجد بين يدى الأمير وهو يبكى ،

فسجد الجميع وراءه ، منهم من يبكى ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه ..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعا ، يود رجالها لو تطير بهم طيرانا الى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدسة توتيشيرى .. ومضت أيام وليالى ، ثم لاحت فى الأفق نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة ، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة الى مرفئها . وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا الى قصر الحاكم ، وتجمع حشد من النوبيين على الشاطىء ليشاهدوا السفن والقادمين عليها . ونزل المصريون الى الشاطىء يتقدمهم الأمير أحمس والحاجب حور ، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم ، فحيا الأمير والقادمين معه ، وأبلغهم تحية الملك وأسرته ، وأخبرهم أن جلالته ينتظرهم فى القصر . وهتف الرجال للملك طويلا ، ثم ساروا فى جموع منظمة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين ..

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة فى فناء قصر الحاكم ، وقد غيرت تلك السنوات العشر منها ما غيرت ، فترك الجد والصرامة والحزن فى نفوس أفرادها جميعا آثارا لا تمحى أبد الدهر ، وكان أكبرهم تأثرا بالدهر الملكتان توتيشيرى وأحوتبى ، فجف عود الأم المقدسة ومالت قامتها الى الانحناء قليلا ، وحفرت الآلام فى جبينها الوضاء تجعداتها ، ولم يبق من توتيشيرى القديمة سوى بريق عينيها ونظرتها الدالة على الحكمة والصبر ، وأما أحوتبى فقد جلل رأسها المشيب ، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم .

ولما رأى الشعب مليكه سجد له ، ثم تقدم أحمس من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكيموس وجدته أحوتبى وتوتيشيرى ، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتارى ، ثم وجه خطابه الى الملك قائلا ...

ـــ مولاى لقد تعهدآمون عملنا بالنجاح ، فالى جلالتكم أقدم أول كتائب جيش الخلاص ...

فلاح السرور فى وجـه الملك ، وقام واقفا ورفع الصـولجان تحية لقومه فهتفـوا له طويلا ، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلا رجلا ، ثم قال لهم كاموس ...

ـــ حياكم الرب أيها الطيبيون الشجعان الذين فرق البغى بيننا وبينهم، فقضى عليهم أن يساموا الخسف ،كما قضى علينا أن نذوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة ، ولكن أراكم رجالا تأبون الضيم وتؤثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة فى ظل الذل ، كما عهدتكم دائما وكما عهدكم أبى من قبل ، فجئتم تصلون جناحى بعد أن تمزق أو كاد ، وتثبتون قلبى وقد أرعشه جفاء الدهر ، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلبا وأعظمنا أملا الأم توتيشيرى فى المنام ، وأمرها أن تبعث بابنى أحمس الى أرض الآباء والأجداد ليأتى بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها ، فبعثت بابنى كما أمر الرب وأتى بكم ، فمرحبا بكم جنود مصر وجنود كاموس، وسيأتى غدا آخرون، فلنستوص بالصبر ولنعمد الى العمل وليكن شعارنا الكفـاح وأملنا مصر وايماننا آمون ...

فصاحوا جميعا كرجل واحد : « الكفاح ومصر وآمون .. » . ثم قامت توتيشيرى واقفة وتقدمت خطوات متوكئة على صولجانها ، ثم قالت للرجال بصوت قوى سليم النبرات :

ـــ يا أبناء طيبـة المجيدة الحزينة ، تقبلوا تحيـات أمكم الكبيرة ، ودعونى أقدم لكم هدية صنعتها بيدى لكم لنعمل جميعا تحت ظلها .

وأشارت الى أحد الجنود بصـولجانها ، فاقترب من الرجال وقدم اليهم علما كبيرا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة ، فتلقفته الأيدى بحماسة ، ودعوا لأمهم دعاء حارا وهتفـوا لها ولطيبة المجيدة ، فابتسمت توتيشيرى وأضاء وجهها نور بهيج، وقالت :

ـ يا أبنائى الأعزاء ، أصارحكم بأنى لم أستسلم الى اليأس أبدا ، وقد أوصانا سيكننرع يوم الوداع بأن نحذر اليأس . وما زلت أدعو الرب أن يمد فى أجلى حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا ، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا والسفلى ، وقد أصبحت اليوم أدنى الى أملى بعد أن ضمت الى سواعدكم الفتية .

فتعالى هتــاف القوم مرة أخرى ، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الرب ، والحاجب يجيبه بما عرف ، ثم قدم الأمير أحمس الى أبيه أحمس ابانا ابن القائد بيبى ، فرحب به الملك وقال له :

ـ أرجو أن تكون لى كما كان أبوك لأبى قائدا باسلا ، فعــاش لواجبه ومات فى سبيله ...

ثم دعا الملك القادمين الى وليمة غداء ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، ثم مضوا جميعا يفكرون فى الغد القريب والغد البعيد ، وباتت نباتا لأول مرة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل ...

# كفاح أحمس

## ١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية فى المهجر حياة دعة وخمول ، ولكنها كانت حياة عمل واعداد للمستقبل البعيد ، مدارها جميعا قلب توتيشيرى الذى لا يعرف اليأس أو الراحة . فطلبت منذ بدء قدومها الى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو الى نباتا مهرة الصناع النوبيين والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة ، فبعث الرجل برسله الى أرقو واطلال وغيرهما من بلاد النوبة ، وجاءوه بالصناع والعمال . وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد اليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال ، وقالت له تشجعه : « ستعمد يوما الى الهجوم على العدو الذى اغتصب عرشك وامتلك بلادك ، فينبغى اذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير ، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أبيك » .

وتحولت نباتا فى أثناء السنوات العشر الى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بأنواعها جميعا ، ونمت ثمارها على الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد . ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى ، وجدوا ما يحتاجون اليه من السلاح والعتاد راهنا موفورا ، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملأها الحماسة والأمل الصادق ، فانخرطوا جميعا غداة وصولهم الى نباتا فى سلك الجندية ، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت اشراف ضباط الحامية المصرية ، فلم تأخذهم فى التدريب هوادة ، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس .

كانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير ، فكان الملك كاموس

يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول ، يعاونه ولى العهد أحمس ، وأبت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة الا أن يعملن مع العاملين ، فكن يثقفن السهام ويرشنها ، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحربية ، وكن لا يفتأن يختلطن بالجنود والصناع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجعنهم ويثبتن قلوبهم . وما كان أروع منظر الأم توتيشيرى وهى مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماسة والرجاء ، وكان الرجال يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة واقبالا ، فتبتسم المرأة استبشارا ، وتقول لمن حولها :

— ان السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها اذا لم تدفعها قلوب أشد صلابة من حديدها ... انظروا الى رجال طيبة كيف يعملون ..؟.. سوف ينقض الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوى اللحى القذرة والبشرة البيضاء ، فيطير أفئدتهم ...

والحق قد انقلب الرجال بقوة الحماسة والحب والبغضاء وحوشا ضوارى ...

وانصرف الحاجب حور الى اعداد القافلة الثانية ، فضاعف لها السفن ، وملأها بالذهب والفضة والأقزام وغريب الحيوان ، وارتأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم الى سادة طيبة ليكونوا عبيدا فى الظاهر وأعوانا فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف اذا اشتغل يوما بالاشتباك معهم ، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد ...

واتنهى حور من الاعداد لقافلته واستأذن فى السفر ، وكان الأمير أحمس ينتظر تلك الساعة بقلب أضناه الشوق وعناه الجوى ، فاستأذن فى الرحيل على رأس القافلة ، ولكن الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرض له من الأخطار ، أبى أن يجازف بسفره مرة أخرى بغير داع ، فقال له :

ــ أيها الأمير ان واجبك الآن يدعوك الى البقاء فى نباتا ..

فبغت الأمير بقول أبيه الذى ألقى على الأمل المضطرم فى صدره كما يلقى الماء البارد على الجمرة المستعرة ، وقال له برجاء صادق :

ــ ان رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبى ..

فقال الملك :

ــ ستجد الشفاء التام يوم تدخلها غازيا على رأس جيش الخلاص ..

فعاود الشاب الرجاء قائلا :

ــ أبى طالما عللت نفسى برؤية طيبة قريبا .

فقال الملك بحزم :

ــ لن يطول انتظارنا ، فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .

وأدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فأشفق من اغضابه اذا عاوده الرجاء . وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحس الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه ، ولكنه تماسك وتجلد ومضى الى المعسكر حيث يتدرب الرجال والقلب حزين كئيب ، وكان نهاره ينقضى فى العمل الشاق فلم يظفر من يومه الا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادى فى خلوته حلو الذكريات ، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية التى شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن وألطف الهوى ، فيخال أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا : « الى الملتقى » . ثم يتنهد من أعماق قلبه ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟ .. انه الوداع الذى لا لقاء بعده ..

على أن نباتا فى تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسى الرجل نفسه وهمه ، وتقصره على الاشتغال بما هو أجل وأخطر . وكان الرجال يعملون جادين يكافحون بغير انقطاع ، فاذا نسمت عليهم ريح طيبة وهزهم الشوق الى من خلفوهم وراء أسوارها ، تنهدوا حينا ثم انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشد . ومرت بهم الأيام لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل ، أو أن فى الغد شيئا سوى الأمل ... ثم

عادت القــافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهفين مثلهم : أين مليكنــا كاموس ، وأين أمنا توتيشــيرى ، وأين أميرنا أحمس ؟ .. ثم ينضمون الى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحياه ، ثم مد له يده برســالة وقال :

ــ عهد الى أن أحمل الى سموك هذه الرسالة ..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشا ! .

ــ من مرسلها ؟

ولكن حور لازم الصمت فى وجوم ، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه ، وفض الرسالة وقرأ الامضاء فارتعــدت مفاصله واشتد وجيب قلبه ، وجرت عيناه على الأسطر فاذا هى ما يأتى :

أيها التاجر اسفينيس :

يحزننى أن أخبرك بأنى اخترت قزما من أقزامك ليعيش معى فى جنــاحى الخاص ، وأنى عنيت به وأطعمتــه ألذ الطعام وكسوته أجمل الكســاء وعاملته أحسن المعاملة ، حتى أنس بى وأنست به ، ثم افتقدته يوما فلم أجده فأمرت الجوارى أن يبحثن عنه فوجــدنه قد هرب الى أخويه فى الحديقة ، فآلمنى غدره وصددت عنه ، فهل لك أن تبعث الى بقزم جديد يعرف الوفاء ؟ ..

أمنريدس

وأحس أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجــلاء تصيب قلبه ، وأن الأرض تميد تحت قدميه . ولاحت منه نظرة الى حور فرآه ينعم فيه النظر كأنه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه ، فتحول عنه وسار فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه هيهات أن تدرى بما يمنعه من العودة اليها ، وهيهــات أن يستطيع يوما أن يبثها شــجوه وعواطفه ، وسترى فيه دائما القزم فاقد الوفاء .

وانطوى على آلامه لايحس ما يستعر فى فؤاده سوى أقرب الأفئدة اليه : نيفرتارى ، وقد تحيرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده ، ونظرة الحزن التى تلوح فى عينيه الجميلتين كلما أرسل النظر غير قاصد شيئا .

فقالت له ذات مساء :

ـ لست كعهدى بك يا أحمس .

فاضطرب لملاحظتها ، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسما :

ـ انه التعب يا حبيبتى ، ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال الرواسى ؟ ...

فهزت رأسها ولم تقل شيئا ، وغدا الشاب أشد حذرا ...

على أن نباتا لم تكن لتترك انسانا يغرق فى حزنه ، لأن العمل قاهر الأحزان ، وقد شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد . فكانت تدرب الرجال ، وتصنع السفن والعجلات والسلاح ، وترسل القوافل محملة بالذهب فتعود محملة بالرجال ، ثم تردها فترتد اليها . ومضت الأيام والشهور الطوال الى أن جاء اليوم السعيد المرتقب ، فقصد الملك كاموس الى جدته توتيشيرى وهو لا يتمالك من الفرح ، ولثم جبينها وقال بصوت منهدج :

ـ أبشرى يا أماه ، لقد تم اعداد جيش الخلاص ...

## ٢

ودقت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقا ورفع الأسطول مراسيه ، ودعت توتيشيرى اليها الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم :

ـ هذا يوم من الأيام السعيدة التى طال انتظارى لها ، فأبلغوا

جنودكم البواســل أن توتيشيرى تضرع اليهم أن يفكوا أسرها ، ويحطموا الأغلال التى تغل أعناق مصر جميعا . وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنمحيت أو تموتوا ميتة سيكننرع . وليباركم الرب آمون وليثبت قلوبكم .

فقبل الرجال يدها النحيلة ، وقال لها الملك كاموس وهو يودعها :

ــ سيكون شعارنا حياة امنمحيت أو ميتة سيكننرع ، وسيموت من يموت منا أشرف ميتة ، ويحيا من يبقى منا أعز حياة .

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رءوم تودع الجيش اللجب . ودقت الطبول وعزفت الموسيقى وتحركِ الجيش متبعا نظامه التقليدى . فتقدمته قوة الكشافة تحمل الأعلام ، وسار الملك كاموس فى طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجـاب والقواد يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة ، ثم تقدمت فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفا صفوفا لا يحدها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصم الآذان وتصهال جيــادها كزفزفة الرياح ، وتليها فرقة القسى الثقيلة بقسيها ودروعها وجعبات السهام ، تتأثرها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأســطول بسفنه الجبارة وقد تهيأ الجنود عليه بكامل معداتهم من القسى والرماح والسيوف . . .

وتقدمت هذه القوات على أنغام الموسيقى تستعر الحماسة فى قلوبها الفتية الغاضبة ، ويلقى منظرها الراهب الرعب فى الأفئدة والنفوس ، تقطع النهار ضاربة فى الأرض وتهجع اذا ما خيم الظلام لا تكل ولا يصيبها الاعيــاء ، مستعينة على مشاق الطريق وطول الرحلة بعزائم تزحزح الجبال . فمروا فى سبيلهم بسمنه وبون وابسلخيس وفتتزيس ونافس ، وما زالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابود آخر بلدان

النوبة ، ونسمت على وجوههم ريح مصر الطيبة ، فعسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال ...

ودبر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا التدبير . وعهد الى أحمس ابانا ــ وكان أمهر ضباط الأسطول كافة ــ بقيادة جزء من الأسطول ليسير به الى حدود مصر ، باعتباره قافلة تجارية مما ألف الحراس اجتيازها للحدود فى العهد الأخير . وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش الى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند اسفار الصبح . وكان أحمس ابانا يقف، على ظهر السفينة فى ثياب التجار الفضفاضة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله بسلام ، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكون من سفن قلائل وحامية صغيرة ، فكانت خطته ترمى الى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها ، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجه حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر ، فيسهل عليه ضرب سيين ولما تأخذ أهبتها . وتقدمت القافلة فى خط أفقى ، فلما دنت من شاطىء بيجه الجنوبى حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسى ، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضابط ، وأمر باطلاق السهام على حرس السفن . واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة ، وانقض عليها قبل أن يأتيها مدد من البر ، وألقى عليها شباكه وقفز الجنود الى سطحها ليستولوا عليها ، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين فى معركة صغيرة فأبادوهم فى زمن يسير . وفى أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحمس تطلق سهامها على حرس الشاطىء وتمنع الجنود من معاونة زملائهم فى السفن . فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف الهاجمين ثمنا غاليا ، وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشمالية ، وتنبهت حامية بيجه الى الحركة الخاطفة فجرت الى الشاطىء ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة ، وأن أسطولها الصغير أسير..

ولم يمض الا قليل وقت على انتهـاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصرى فى الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود ، ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة ، وانضمت الى أسطول أحمس ابانا ، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية بيجة الى التقهقر الى قلب الجزيرة بعيدا من مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

وما هى الا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقى ، تتبعها الفرق ذات اللجب ، فأدرك المحاصرون فى بيجة أن القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصـدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حمـاية القسى ، وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية المحاصرة فى الوسط ، وكان جنودها — الى وقوعهم فى مركز دقيق — قد رأوا تدفق القوات المصرية فى البر والنيل فخذلتهم سـواعدهم وخانتهم شجاعتهم ، وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى . وكان أحمس ابانا على رأس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليـه الأعـلام المصرية ، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود ..

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم ، وهرعوا نساء ورجالا الى قصر الحاكم الجديد وتجمعوا أمامه ليروا ما الخبر ، تصطرع فى نفوسهم الآمال والمخاوف ، فخرج اليهم أحمس ابانا ، وقد تطلعوا اليه صامتين ، فقال لهم :

— حياكم الرب آمون حامى المصريين وقاهر الرعاة .

فوقعت كلمة آمون من آذانهم موقعا جميلا ساحرا ، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام ، وأضاء وجوههم نور الابتهاج فتساءل بعضهم :

— هل أتيتم حقا لانقاذنا ؟

فقال أحمس ابانا بصوت متهدج :

ـ لقد جئنا لانقاذكم وانقاذ مصر المستعبدة فأبشروا ، ألا ترون هذه القوات الهائلة ؟ انها جيش الخلاص ، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكننرع ، الذى جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه ..

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين ، ثم غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له طويلا ، وجثا كثيرون يصلون للرب آمون المعبود ، وسأل بعض الرجال أحمس ابانا قائلين :

ـ هل انتهت عبوديتنا حقا ؟ وهل نرد اليوم أحرارا كما كنا من قبل سنوات عشر ؟.. هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأننا فلاحون ؟..

فاهتاج أحمس ابانا غضبا وقال بحنق :

ـ ثقوا أن عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى الى غير رجعة، وانكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارا فى كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعى ، وسترد اليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر فى غيابات السجون .

فشمل الفرح النفوس المعذبة ، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء الى آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض ...

## ٣

وفى رونق الضحى نزل الملك كاموس وولىعهده أحمس والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعا الى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسيا ، وخروا سجدا يقبلون الأرض بين يديه ، وتعالى هتافهم لذكرى سيكننرع ولتوتيشيرى وللملك وللأمير أحمس ، فحياهم كاموس بيديه ، وتحدث الى جمع غفير من رجالهم ونسائهم

وأطفالهم ، وأكل ما قدموه اليه من الدوم والفاكهة ، وشرب وحاشيته وقواده أقداحا مترعة بنبيذ مريوط ، وذهبوا جميعا الى قصر الحاكم ، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكما على الجزيرة وعهد اليه فى نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية . وفى ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سيين عند الفجر ، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها ...

ونام الجيش مبكرا واستيقظ قبيل الفجر ، ثم زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، فشق الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة ، والغضب يتأجج فى الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال . واقتربوا من سيين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول ، وشف الأفق الشرقى عن طلائع الشمس ، وأصدر كاموس أمره الى قوات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوات من فرقتى القسى والرماح ، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة . وهجمت القوات على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد ، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها ، فوجهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة . وتبعتها قوات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها الدماء أنهارا . واستطاع الرعاة أن يقاتلوا فى بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس ، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة . أما الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق فى طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطىء ، وأنزل قوات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها ، وكان من بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان ، ثم اخترقت القوات الحقول صوب المدينة..

وكانت المفاجأة عاملا فاصلا فى المعركة قصر مدتها وكثر صرعاها من الرعاة ، فما ارتفعت الشمس فى الأفق وأرسلت نورها الى المدينة

حتى رئيت جموع الغزاة وهى تحتـــل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى ، وشوهدت الجثث ملقـــاة فى السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها . وذاع فى أرجاء المدينة والحقول القريبة أن كاموس ابن سبكننرع اقتحم سين بجيش جرار واستولى عليها ، فاستعرت على الأثر ثورة دموية ، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلوهم فى مخادعهم ، ومثلوا بهم وضربوهم بالسياط ضربا مبرحا ، فهام كثيرون على وجوههم فزعين كما فعـــل المصريون حين زحف أبوفيس على الجنوب بعجلاته ورجاله ... ثم هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ، ودخل الملك كاموس على رأس جيشـــه تخفق على رأسه الأعلام المصرية وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها ، فهب الأهلون يستقبلونه ، وكان يوما مجيدا ...

ونقل الضباط للملك أن عددا غفيرا من الشبان — ومنهم من كانوا جنودا فى الجيش القديم — يقبلون على التطوع فى الجيش بحماسة فائقة ، فسر كاموس وولى على المدينـــة أحد رجاله المدعو شاو ، وأمره بأن ينظم المتطوعين ويدربهم لينضـــموا الى الجيش جنـــودا متأهبين ، وأحصى القواد للملك ما غنموه من العجـــلات والسلاح والجياد فاذا هو شىء عظيم .

واقترح الحـــاجب حور على الملك أن يتقـــدموا دون توان حتى لا يدعوا للعدو مهلة للتأهب وحشد الجيوش ، قال :

— سنخوض أول معركة حقيقية فى أمبوس ..

فقال كاموس :

— نعم يا حور ، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفـــارين ، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن ، وســـنلقى عدونا مســـتعدا . وربما اســـتطاع أبوفيس أن يلقـــانا بقواته الغاشمة فى هيراكونبوليس .. فهيا الى المسير ...

وزحفت القوات المصرية — البرية والنيلية — صـــوب الشمال فى

طريق أمبوس ، ودخلت فى قرى كثيرة فلم تلق مقـاومة ابيه ، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة ، وعلم الملك أن رجال العدو يحمـلون متاعهم ويسـوقون حيوانهم فارين الى أمبوس ، وخرج الفلاحون يسـتقبلون جيش الخلاص ويحيون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل . وجد الجيش فى المسـير حتى شارف أمبوس ، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرر أنالعدو معسكر جنوب المدينة متأهبا للقتـال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسـو غرب أمبوس ، فعـلم كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنود عدوه ، ولكن تعذر ذلك على جنود الكشف لأن العـدو كان يعسكر فى سهل منبسط لا تسهل مراقبته ، فقال قائد شاب يدعى محب :

ـ لا أظن يا مولاى أن قوة أمبوس تعدو بضعة آلاف ...

فقال الملك كاموس :

ـ ائتونى بكل ضابط أو جندى من أمبوس ...

وفطن الحاجب حور الى ما يريد الملك فقال :

ـ عفـوا يا مولاى ، لقد تغير وجـه أمبوس فى عشرة الأعوام المنقضية ، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل رأيتها بعينى فى بعض رحلاتى التجارية ، ومن المرجح أن الرعاة جعلوا منها مركزا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود ...

فقال القائد محب :

ـ على أى حال يا مولاى أرى أن نهجم بقـوات خفيفة ، حتى لا نتكبد خسارة فادحة ...

ولم يستحسن الأمير أحمس هذا الرأى ، فقال لأبيه :

ـ مولاى أرى خلاف هذا الرأى ، أرى أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ، وأن تقذف بجل قواتنـا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت ، فنذهل القوات التى تحشـد فى طيبة الآن

ا ، ونقاتل من الغد رجالا يرون الموت ماثلا فى قتالنا . ولاخوف سينا من المخـاطرة بجنودنا ، فسيتضاعف جيشنا بما ينضم اليه من المتطوعين فى كل بلد نغزوه ، ولن يجد عدونا لخسارته عوضا ...

وراق هذا الرأى الملك فقال :

ـ ان رجالى يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل طيبة ..

وكان الملك يعلم بما لانتصـار الأسطول من أثر حاسم فى كسب الموقعة ، للدور الخطير الذى يلعبه فى ضرب الحصار على شواطىء المدن الغنية أو انزال جنود فى مؤخرة العدو ، فأصدر أمره الى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس ...

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح ، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد ، ذوى بأس ومقدرة ، وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة ، فبدءوهم بالهجوم وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية . وأصدر كاموس أمره بالهجـوم ، فاندفعت قوات من العجـلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوة العـدو فثار النقع وصهلت الخيل وعزفت القسى . ودار قتال عنيف ، وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدوالقضاء المبرم ، فاندفع بمائتى عجلة جديدة على قوات المشاة التى تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس ، وتبعتـه قوات من فرقة القسى وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على المشـاة فاخترقت صفوفهم وألقت فيها الاضـطراب والفزع ، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر ، فتشتت شملهم بين جريح وقتيل وهارب ، فتلقتهم قوى المشاة المهاجمة فى كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء الأخير . وذهل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد ، وانهـارت قواته سريعا ، وتساقط فرسانه وحطمت عجـلاته . وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لايصدق ، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق ، وضربوا بسواعد يشد أعصابها حقد مؤرث وسخيمة مستمرة ...

واقتحمت قوات مسلحة أبواب أمبوس ودخلتها عنوة لتحتل الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو ، ومضى الضباط فى الميدان ينظمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى . ووقف الملك كاموس فى وسط الميدان على عجلته يحيط به القواد والى يمينه الأمير أحمس والى يساره الحاجب حور ، وكانت الأنباء جاءته بأن أسطوله كر على سفن العدو وهجم عليها بشدة ، وأنها تقهقرت أمامه دون انتظام ... فسر الملك وقال لمن حوله مبتسما :

ــ بدء موفق ...

فقال الأمير أحمس ، وكان معفر الثياب مغبر الوجه متصبب الجبين عرقا :

ــ انى أتوق لخوض معارك أشد هولا ..

فقال كاموس وهو يلقى على وجهه الجميل نظرة اعجاب :

ــ لن يطول انتظارك ..

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار خطى حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظرة وقد انبجست الدماء منها فخضبت جلدها الأبيض ومزقتها السهام والرماح ، ثم قال :

ــ لا تظنوا هذه الدماء دماء أعدائنا ، بل هى دماء قومنا التى امتصوها وتركوهم يتضورون جوعا .

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن ، فرفع رأسه الى السماء وتمتم قائلا :

ــ لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة ..

ثم نظر الى من حوله وقال بصوت دلت نبراته على القوة والبأس :

ــ ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين فى طيبة وهواريس ، فاذا آزرنا النصر فيهما طهرنا الوطن من الرعاة الى الأبد ، ورددنا مصر الى عهد أمنمحيت المجيد ، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن هواريس ؟ ..

وتحول الملك ليرجع الى عجلته ، وفى تلك اللحظة انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسددت قوسا نحو الملك وأطلقت ... ولم يكن فى الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق ، فأصاب السهم صدر الملك ، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسى ، وهرعوا الى الملك بأفئدة يملأها الرعب والاشفاق ، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة ، ثم ترنح كالثمل وسقط بين يدى ولى عهده ، وصاح الأمير :

ـ أحضروا هودجا وادعو الطبيب .

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدج :

ـ أبتاه .. أبتاه .. ألا تستطيع أن تكلمنا ؟ ..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج ، فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية فائقة . وركع الطبيب الى جانبه ، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره ، وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يرددون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب . وذاع الخبر فى الميدان ففشت الضوضاء ، ثم ساد صمت ثقيل كأنما لحق الفناء بذاك الجيش العرمرم ..

ونزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة ، فتقلص وجه الملك من الألم ، فأظلمت عينا الأمير أحمس من الحزن ، وتمتم حور قائلا : « رباه .. ان الملك يتألم . » . وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش ، ولكن الملك لم يبد عليه أى تحسن ، وارتعشت أطرافه بصورة جلية ، ثم تنهد تنهدة عميقة ، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة ، فازداد صدر أحمس انقباضا ، وقال لنفسه شاكيا : « لشد ما تغيرت يا والدى .. » . وحرك الملك عينيه حتى استقرتا على وجه أحمس ، فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع :

ـ ظننت قبل حين أني بالغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتي على أبواب أمبوس ..

فصاح أحمس بصوته الحزين :

ـ فدتك نفسي يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

ـ كلا ، صن نفسك فما أكبر الحاجة اليها .. وكن أشد حذرا منى، واذكر دائما أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن ديارنا جميعا ..

وخشى الطبيب على الملك من الجهد الذى يبذله فى الكلام وأشار عليه بالسكوت ، ولكن الملك كان يندمج فى احساس علوى هو الفاصل بين الفناء والخلود ، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع :

ـ قل لتوتيشيرى انى لحقت بأبى باسلا مثله ..

ومد يده لابنه ، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها الى صدره ، وقبض الملك على منكبه حينا يودعه ، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح . . .

٥

وسجى الطبيب الجثة ، وسجد الرجال حولها وصلوا صلاة الوداع ، ثم قاموا وكأنهم من الحزن سكارى ، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلا :

ـ أيها الرفاق ، يؤسفنى وحق الرب أن أنعى اليكم مليكنا الباسل كاموس ، فقد استشهد فى ميدان الكفاح وفى سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل ، وانتقل الى جوار أوزوريس منتزعا من صميم نفوسنا ، بعد أن أوصانا بألا نكف عن الكفاح حتى تسقط

هواريس ويجلو العدو عن ديارنا . وانى بوصفى حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزيكم فى مصابنا الجلل ، وآذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحمس بن كاموس بن سيكننرع حفظه الرب وأيده بالنصر المبين ..

فحيا القواد جثة كاموس وانحنوا لأحمس الملك الجديد ، وأذن لهم الحاجب بالعودة الى جنودهم لاعلان الوفاة والتولية ..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكى على الأعناق وقد غلبه الحزن ، فقال وهو يجفف عينيه :

ــ لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام فى جوار أوزوريس . كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر ، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولا على نعشك ، وانك لأكرمنا على الحالين ..

ودخل الجيش أمبوس فى نظامه التقليدى يتقدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها ، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وجاءت الجموع الغفيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن . ولما رأى الناس الملك الجديد أحمس سجدوا فى سكون وخشوع ، ولم يتعال فى ذلك اليوم هتاف قط ... وتسلم كهنة أمبوس الجثمان العظيم ، وخلا أحمس الى نفسه فكتب رسالة الى توتيشيرى كما أوصاه أبوه ، وبعث بها مع رسول ...

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول ، قالوا ان الأسطول المصرى هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته ، ولكن القائد قمكاف سقط قتيلا ، وأن الضابط أحمس أدار دفة المعركة بعد سقوط القائد ، وحاز النصر النهائى ، وقتل قائد الرعاة بيده فى معركة عنيفة . وأراد الملك أن يكافىء أحمس ابانا ، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول ...

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صـديقه هام حكم أمبوس ، وعهد اليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها ، وقال الملك لحور :

ــ سنتقدم بقواتنا سريعا ، لأنه اذا كان الرعاة يعذبون قومنا فى وقت السلام فانهم سيضاعفون لهم العذاب فى وقت الحرب ، فينبغى أن نقصر عهد العذاب ما وسعنا الجهد ...

واستدعى الملك الحاكم هام ، وقال له أمام حاشيته وفواده :

ــ اعلم انى آليت على نفسى منذ اليوم الذى سعيت فيه الى أرض مصر فى ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين ، فليكن هذا شعارك فى حكم هذا البلد . وليكن رائدك أن تطهره من البيض ، فلن يحكم بعد اليوم الا مصرى ، ولن يملك الا مصرى . والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه فى استثمارها ، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حيـاة رغدة ، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه فى الصالح العام . والمصريون متساوون أمام القانون ، لا يرفع الأخ منهم الا فضله ، ولا عبد فى هذا البلد الا الرعاة ...، وأوصيك أخيرا بجثة أبى فأد اليها واجبها المقدس ...

## ٦

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر ، وأبحر الأسـطول ، ومضت الطلائع تدخل القرى فتسـتقبل فيها أحر اسـتقبال وأجمله حتى شارفوا أبولبتو بوليس مجنا ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مؤاتية فلا تجد أثرا لسفن العدو ، فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشفية الى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا فى كمين . وبات الجيش والأسطول فى أبولبتو بوليس مجنا ، وفارقاها مع الفجر ، وكان الملك

وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية ، والى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بهما رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد ، وسأل الملك حور :

ــ ألسنا سائرين الآن الى هيراكونبوليس ؟

فقال الحاجب :

ــ بلى يا مولاى ، وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها ، وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين .

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدو ، وأن المعركة تدور بقوة وعنف . فعطف الملك رأسه نحو الغرب ، وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل ، وقال حور :

ــ ان الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل ...

فصمت الملك ولم يجب ، ومضت الشمس ترتفع الى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقه ومعداته ، فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير ، وتمثلت له أسرته وهى تتلقى نبأ مقتل كاموس ، وكيف تفزع أمه ستكيموس وتتفجع جدته أحوتبى وتئن الأم الصابرة توتيشيرى وتبكى زوجه نيفرتارى التى أصبحت ملكة مصر . رباه .. لقد سقط كاموس غدرا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات . ثم سرى خياله الى الأمام ، الى طيبة حيث يملك أبوفيس ويعانى الشعب ألوان العذاب والذل ، وذكر خنزر الحاكم الهائل الباسل الذى لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلا ، ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس وذكر المقصورة التى أصلاهما الهوى فيها نارا مقدسة ، وتساءل أما تزال تتعلق بالتاجر الجميل إسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده ؟

وهنا سعل حور فذكره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق الى أمنريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها ، فأراد أن يطرد

الفكر فألقى ببصره على جيشه العرمرم الذى ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته ، فسرى عنه وعاد الى التفكير فى المعركة الدائرة فى النيل .. وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون ان الأسطولين مشتبكان فى قتال عنيف ، وأن القتلى تسقط بكثرة من الجانبين ، وأن القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهن بنتيجة المعركة . فلاح العبوس فى وجه الملك ولم يخف قلقه ، فقال حور :

ـ لا داعى للقلق يامولاى فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها ، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحمس :

ـ اذا خسرناها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور بيقين :

ـ واذا كسبناها يا مولاى كما أتوقع كسبنا الحرب كلها .

وأمسى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف للراحة والاستعداد ، على أنه ما كاد يمكث وقتا قصيرا حتى جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو ، فقال أحمس :

ـ ان الرعاة مستريحون ، ولا شك أنهم يرحبون بالاشتباك معنا الآن .

وأمر الملك بارسال قوة من العجلات لتؤيد قوات الاستطلاع اذا هاجمتها قوات تفوقها عددا ، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة فى أى وقت كان ...

وكان أحمس يحس التبعة الخطيرة التى يتحملها بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته ، وشعر بأنه حامى هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر الى الأبد ، فقال لحور :

ـ ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال الحاجب :

ـ هذا ما سيحاوله كلا الجيشين . واذا حطمنا عجلات العدو سيطرنا على الميدان ، وأصبح جيشه تحت رحمة قسينا ..

وفى تلك الساعة وأحمس يتأهب لخوض غمارالمعركة ، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحمس ابانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وأن القتال مستمر على أشده . فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم ، ولم يجد مهلة للتفكير اذ أخبر أن جيش العدو بدأ هجومه . فحيا حور والحاشية وتقدم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم ، فهجم الجيش فى قلب وجناحين اندفعوا صفوفا متراصة فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالا . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضا كالريح العاصفة فى جموع كثيفة من العجلات ، فعلموا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية التى طالما سامتهم الخسف ، فثار الغضب فى نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد : « حياة أمنمحيت أو ميتة سكننرع » . وألقوا بأنفسهم فى المعركة بقلوب تتعطش الى القتال والانتقام ، فقاتل الفريقان بقوة وقسوة ووحشية . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسى . واستمر القتال قاسيا عنيفا حتى مالت الشمس نحو الأفق وذابت فى بحيرة من دماء . وحلقت فى الفضاء أشباح الظلام ، فكف الجيشان ورجع كل الى معسكره ، وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه الذى دافع عنه فى أثناء كره وفره ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم :

ـ كان قتالا عنيفا كلفنا أبطالا بواسل ...

ثم تساءل الملك :

ـ ألم تجد أخبار عن معركة النيل ؟

فقال الحاجب :

ــ ما يزال الأسطولان يعتركان ...

ــ أما من جديد عن أسطولنا ؟

فقال حور :

ــ قاتل فى أثناء النهار وهو يرتد ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلالم فلم تستطع انفصالا حين خيم الظلام ، القتال ما يزال مستمرا وانا لفى انتظار ما يجد من الأخبار .

فتجهم وجه الملك التعب ، وقال لمن حوله :

ــ لندع الرب جميعا أن ينصر اخواننا الذين يقاتلون على متن النيل ..

## ٧

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ فى الاستعداد والتأهب ، وجاءت العيون بأنباء مهمة فقالوا ان الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقرر بعض من جازفوا بالتوغل فى الحقول المحيطة بميدان القتال أن قوات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفق على هيراكونبوليس طوال الليل وأن تدفقها لم ينقطع الى ما قبيل طلوع الفجر . وتفكر حور مليا ثم قال :

ــ ان العدو يا مولاى يجمع لنا جل قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ، ولا أعجب لذلك لأننا اذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدمنا سوى أسوار طيبة المجيدة ...

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل ، فعلم الملك أن أسطوله قاتل قتال المستيئس فلم يتمكن منه عدوه كما اشتهى ، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوته . وكف الأسطولان عن القتال ساعات ثم اشتبكا فى عراك جديد بعيد مطلع الفجر ، وكان

أسطول أحمس اباتا البادىء بالهجوم . فانشرح صدر الملك وتوثب للقتال بقلب جذل ..

وحين سفور الصبح تقدم الجيشان للقتال ، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة : حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع . ثم قدموا بأنفسهم فى معترك الموت لا يلوون على شيء ، فالتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتد عليهم ، وقاتلوا بالقسي والرماح والسيوف . ولاحظ الملك أحمس بالرغم من اشتداد القتال أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوات هنا وهناك باتنظام ودقة ، فعاين القائد البارع فاذا به غير حاكم هيراكونبوليس ، واذا به الملك أبوفيس نفسه الذى أهدى اليه التاج المرصع بالجواهر فى قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد . فتحفز أحمس لهجمات شديدة ، وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرسه يرد عنه هجمات العدو ، فلم يلق فارسا من القوم الا جندله فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلب عليه . وطال أمد القتال ، واندفعت الى الميدان قوات جديدة من الجانبين ، فاستمر القتال على عنفه وشدته حتى أوشك النهار أن يزول . وفى تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضت قوة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس ، وضغطته ضغطا شديدا لم تفد معه المقاومة المنهوكة القوى ، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوة المحاربة أو للهجوم على المشاة . فأدرك أحمس أن ذاك القائد ذا البأس تحين فى تعبهم فرصة مناسبة ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة، أو يوقع مذبحة فى مشاته ، فرأى أن يقتحم قلب العدو بقواته ليضيق عليه ، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر . ولم يتردد لأن الموقف كان خطيرا دقيقا ، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب

بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال الى درجة مروعة مفزعة ، واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وحينذاك أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر ، ولكن القائد كان داهيـــة بارعا فعدل خطته بعـــد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو ، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة الى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزر حاكم الجنوب الجبار ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية ، وقد كلفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشـــه الى معسكرهم ، وكان أحمس يقول متوعدا غاضبا : « لابد أن نلتقى ياخنزر وجها لوجه .. » واســـتقبله رجاله بالدعاء . ووجد بينهم شخصا جديدا هو أحمس ابانا ، فتفاءل من وجوده فى المعسكر وسأله :

ــ ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال أحمس ابانا :

ــ النصر يا مولاى ، لقد أوقعنا بأســـطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه ، وفرت سفن لا تغنى ولا تعين .

فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على منكب القائد وقال :

ــ لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصـــف الحرب ، واننى بك جد فخور .

فتورد وجه أحمس ابانا وقال بسرور :

ــ ما من شـــك يا مولاى فى أننا دفعنا ثمن النصر غاليـــا ، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل .

فقال الملك بلهجة رزينة :

ـ كبدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضا منها ، والفوز فى هذه الحرب لمن يقضى على فرسان عدوه ..

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك :

ـ ان حكامنا فى الجنوب يدربون الجند ويبنون السفن والعجلات ، ولكن تدريب فرسان العجلات يتطلب زمنا طويلا ، فلن ينفعنا فى المعركة التى نخوض غمارها الا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرة أخرى ...

## ٨

واستيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ فى التأهب والاستعداد ، وارتدى الملك لباسه الحربى واستقبل فى خيمته رجاله وقال لهم :

ـ لقد صح عزمى على مبارزة خنزر ...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم :

ـ مولاى ، ينبغى ألا تشل ضربة طائشة عملنا المجيد .

وتوسل كل قائد الى الملك أن يأذن له فى قتال حاكم الجنوب ، ولكن أحمس شكرهم وقال لحور :

ـ لن يشل عملنا خطب وان جل ، ولن يعوقه مصرعى اذا صرعت ، فلا يفتقر جيشى الى القواد ولا تعوز بلادى الرجال ، وما كان لى أن أضيع من بين يدى فرصة أواجه بها قاتل سيكننرع ، فدعنى أقاتله حتى أقتله لأوفى دينا فى عنقى نحو روح كريم يراقبنى من العالم الغربى ، ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الخائرين ...

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته ، فتوسط الرجل الميدان وصاح :

— أيها العـدو ، ان فرعون مصر يرغب فى مبـارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر :

— قل لمن تدعوه فرعون ان القـائد خنزر لا يحرم عـدوا شرف الموت بسيفه ...

فامتطى أحمس صـهوة جواد كريم . ووضع السيف فى حاملتـه والرمح فى قرابه ، ونخسه فعـدا به الى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب تياها فخورا يبدو جسمه كأنه كتلة جبارة من الجرانيت ، فتدانيا رويدا رويدا حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا ، وعاين كل منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة :

— رباه . . . من أرى أمامى . . . ألست اسفينيس تاجر الأقـزام واللآلىء ؟ .. يالها من دعابة ، أين تجارتك أيها التاجر اسفينيس ؟

وكان أحمس ينظر اليه فى هدوء وسكينة فقال له :

— انتهى اسفينيس أيها القـائد خنزر ، وليس لى من تجارة الآن سوى هذا ...

وأشار الى سيفه ، فملك خنزر عواطفه وسأله :

— فمن تكون اذاً ؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

— أحمس فرعون مصر .

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :

— ومن الذى ولاك ملك مصر وهذا ملكها يحمل التـاج المزدوج الذى أهديته له ساجدا ...

فقال أحمس :

— ولانى الذى ولى آبائى وأجدادى من قبل ، فاعلم أيها القائد أن الذى سيقاتلك هو حفيد سيكننرع ...

فبدا الجد على وجه الحاكم وقال بهدوء :

ــ سيكننرع ... انى أذكر ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن يرغم على منازلتى ، وانى أكاد أدرك كل شيء فاعذرنى على بطء فهمى . فاننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف ، أما أنتم معشر مدعى الملك من المصريين فتتخفون طويلا فى ثياب التجار قبل أن تؤاتيكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك ... فليكن ماتريد ، ولكن هل ترغب حقا فى مبارزتى يااسفينيس ؟

فقال أحمس بحدة :

ــ فلنرتد من الثياب ما نشاء فهى ثيابنا ، أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى آوتكم مصر . ولا تدعى اسفينيس ما دمت تعرف أنى أحمس بن كاموس بن سيكننرع ، أسرة عريقة فى النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم تعرف التشرد فى الصحارى ولا رعى القطعان ، وانى لأرغب حقا فى مبارزتك ، وانه لشرف تكتسبه كى أؤدى دينا فى عنقى نحو أجل انسان عرفته طيبة ...

فصاح خنزر قائلا :

ــ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك ، فظننت أن انتصارك على القائد رخ مسوغا للوقوف أمامى .. فوارحمتاه لك أيها الشاب الغرير ... ماذا تختار أن يكون سلاحك ؟ .

فقال أحمس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة :

ــ السيف اذا شئت ...

فقال خنزر وهو يهز منكبيه العريضين :

ــ هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده وأسلم قياده الى تابعه ، ثم سل سيفه وأمسك بترسه ، ففعل أحمس مثله ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين ، ثم تساءل أحمس :

ــ هل نبدأ ؟

فقال خنزر ضاحكا :

ـ ما أجمل هذه المواقف التى تتكاشف فيها الحياة والموت ، هلم يا فتى . . .

فتوثب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجه اليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه . ثم رد عليه الهجوم وهو يتكلم قائلا : « يالها من ضربة صادقة يا اسفينيس ، وما أظن الا أن رنين سيفك على ترسى ينشد لحن الموت ... مرحى ... مرحى . ان صدرى يرحب برسل الموت ، فطالما طمع الموت فى وأنا ألعب بين مخالبه ، ثم يرتد عنى خائبا وقد أدرك آخر الأمر أنه انما حضر لغيرى » . كان الرجل يقاتل دون أن يكف عن الكلام كأنه راقص ماهر يغنى وهو يرقص ، فأدرك أحمس أن خصمه عنيد شديد البأس ، فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبار فى الكر والفر ، فبذل كل مالديه من قوة ودراية ، وتفادى من الضربات الموجهة اليه وهو يعلم أنها ضربات قاتلة لا نجاة منها اذا أصابت هدفها . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحس ثقلها ، ورأى خصمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجه اليه ضربة هائلة تلقاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وارادته ، فسأل أحمس : « أين صنع هذا السيف المتين ؟ » .

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذلك : « فى نباتا فى أقصى الجنوب » . فقال الرجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وجهت اليه بمهارة فائقة : « أما سيفى فقد صنع فى منف بأيدى صناع مصريين ... وما كان صانعه يعلم أنه يقدم لى ما أقضى به على مليكه الذى تاجر وقاتل فى سبيله » .. فقال أحمس : « ما أسعده غدا اذا علم أنه كان شؤما على عدو بلاده ... » .

وكان أحمس يتحين الفرصة لهجوم عنيف ، فما كاد يتم كلامه حتى وجه الى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة ، فتحاماها خنزر بدرعه وسيفه ، ولكنه اضطر الى أن يتقهقر خطوات ، فقفز عليه

الملك وهاجمه هجوما قاسيا ووجه الضربة تلو الضربة الى مقاتله . وأدرك خنزر خطر المصير فكف عن مداعبةخصمه وأطبق فمه ، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور . وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس فظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحمس هنيهة : « ترى هل أصبت؟ » . ولكنه لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضعا وقد ارتج ساعده . وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب ، وتوقف أحمس عن القتال ونظر الى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر ، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس ، فما كان من أحمس الا أن خلع ترسه ورمى به جانبا ، فبدت الدهشة على وجه خنزر ونظر اليه نظرة غريبة وهو يقول : « يا له من نبل حقيق بأخلاق الملوك .. » . واستأنفا القتال فى سكون فتبادلا ضربتين شديدتين ، ولكن ضربة أحمس كانت أسرع الى رقبة خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم ، ودنا الملك منه فى خطى بطيئة ، ونظر الى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له :

ــ يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزر ...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة :

ــ بالحق نطقت أيها الملك ... ولن يعترض سبيلك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزر ووضعه الى جانب جثته ، ثم امتطى جواده وعاد الى معسكره ، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحنق ورغبة فى الانتقام فأقبل على فرسانه وصاح بهم :

ــ أيها الجنود ، رددوا شعارنا الخالد : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . واذكروا أن مصيرنا الى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة

الدائرة ، فلا ترضوا أبدا أن يضيع صبر الأعوام وجهـاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة ...

ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس .

واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة .

## ٩

وفى مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحمس من الميدان متعبا منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده ، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوض ، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصد هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة . فساور الملك القلق ، وخشى أن تتحطم فرقة العجلات الجبارة يوما بعد يوم ، وكان فى ذاك المساء غاضبا حزينا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة ، فقال وكأنه يحدث نفسه :

ـ هيراكونبوليس ... هيراكونبوليس ... ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟ ..

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنا أو غضبا ، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال ، فقال الحاجب حور :

ـ مولاى ... ان فرساننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهـولنا خسائرنا ، وغدا اذا ظهرنا على العـدو وحطمنا عجلاته لن يكون لمشاته قبل بنا ، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم .

فقال الملك :

ـ كانت غايتى الكبرى أن أقضى على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لنسيطر على الميدان دائما ، كما فعل الرعاة فى

هجومهم على طيبة . ولكنى بت أخشى أن يقضى على قوتينا الراكبتين معا ، فنتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقى على مدننا ولا تذر ...

وطلب الملك أن يطلع على الاحصاء الأخير للخسائر ، وجاء ضابط به فاذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثى قوتها من العجـلات والفرسان .

فامتقع أحمس ونظر فى وجوه رجاله ، فاذا بالوجوم يعلوها جميعا . ثم قال :

ـــ لم يبق لدينا سوى ألفى فارس ... فكيف تقدرون خسائر العدو؟

فقال القائد ديب :

ـــ لا أتصور يا مولاى أنها تقل عن خسارتنا .. وأرجح أنها تزيد عليهـا . . . .

فحنى الملك رأسه ولبث يفكر مليا ، ثم نظر الى رجاله وقال :

ـــ سيعلم كل شىء غدا ، فغدا يوم الفصل دون شك ، ولعل عدونا يعانى من الحيرة والقلق ما نعانى وأكثر ، وعلى كل حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدا ، والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة ...

فقال ديب متسائلا :

ـــ ان أسطولنا لا يحارب الآن ، فلماذا لا ينزل جنودا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب ؟

فقال أحمس اباناً :

ـــ ان أسطولنا يسيطر الآن على النيل ســيطرة كاملة ، ولكنا لا نستطيع أن نجازف بانزال جنود وراء العدو الا اذا كان جيشه جميعا مشتبكا فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات ، أما جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا ...

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلا :

ـــ أليس لنا يا مولاى قوة احتياطية من الفرسان ؟

فقال أحمس :

ــ لقد جئنا مصر بستة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم ...

فقال حور :

ــ مولاى ان سيين وأمبوس وأبوليوبوليس مجنا تبنى العجلات وتدرب الفرسان بلا توان .

أما أحمس ابانا فقال بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

ــ حسبنا شعارنا الذى لقنتناه الأم المقدسة توتيشيرى : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وان فرساننا لا يغلبون ، وان مشاتنا ليتحرقون شوقا الى القتال ، ولنذكر دائما أن الرب الذى أرسلك الى أرض مصر لم يرسلك عبثا .

وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتسم الملك ابتسامة مشرقة ، وبات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح تقدمت فرقة العجلات وفى قلبها الملك وحرسه ، ونظر الى الميدان فرآه خاليا فعجب غاية العجب ، ثم أمعن فى النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله اليها رجل من الرعاة . ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرروا بين يديه أن جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرارة وترك هيراكونبوليس فى الليل وجد فى السير نحو الشمال ، ولم يتمالك القائد محب أن قال :

ــ الآن حصحص الحق ... وما من شك فى أن قوة عجلات الرعاة تحطمت ، وأن أبوفيس آثر أن يفر الى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته . . .

وقال القائد ديب فرحا :

ــ مولاى ... لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ...

وكان الملك أحمس يتساءل ترى هل حقا انكشفت الغمة ؟ .. ترى هل حقا زالت المخاوف ؟ ثم التفت الى ديب وقال :

ـــ بل قل اننا حطمنا عجلات الرعاة وكمى ...

وسرت الأخبار الى الجيش فشاع الفرح فى النفوس ، وهرع رجال الحاشية يتقدمهم حور الى الملك وهنأوه بالنصر المبين الذى فتح الرب به عليه . ودخل أحمس مدينةهيراكونبوليس على رأس جيشه ، وهرع معه الأهالى اليها من الحقول التى فروا اليها خوفا من انتقام الرعاة ، واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء ...

وكان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذى مد له يد المعونة بعد أن كاد يشفى على اليأس ...

## ١٠

واستراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما ، وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة واعادة مصريتها الأولى الى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها ، وواسى الأهالى لما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرضت له مدينتهم فى أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب .

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة ، وبات فيها حتى فجر اليوم الثانى . ثم استأنف مسيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية . وشارف وادى لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام ، وكانالملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها ، فأرسل أحمس طلائع جيشه اليها وحاصر أحمس ابانا شطئانها الغربية ، ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنا . وقص عليهم الأهالى كيف مر بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل

أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم في حالة شديدة من الفزع والفوضى ...

وتقدم الجيش بقواته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ ترت ، ثم من بعدها هزمنتيس ، وكانوا يتوقون جميعا الى ملاقاة عدوهم ليشفوا غل صدورهم . ولكن كان السرور يتألق فى وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرروا قطعة من الوطن الأسير . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة ، فمضوا ينشدون الأغانى الحماسية ، ويضربون فى أرض الوادى بسيقانهم النحاسية ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة . وكان الوادى ينحدر نحو جنوبها انحدارا فجائيا شديدا ، فذهبت الطلائع الى المدينة ولكنها كانت كسابقاتها من المدن بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام . وهز دخول هابو قلوب الجنود جميعا لأنها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد ، ولأن كثيرا من جنود الجيش كانوا من بنيها البواسل ، فتعانقت فى ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين . ثم تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة وأنفس متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل فى تاريخه والمعركة الخطيرة التى تقرر مصير طيبة . وانحدر فى الوادى العظيم الذى يطلق عليه الطيبيون « طريق آمون » ، وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقا وغربا ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثل فيها جميعا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة ، فسرت منها الى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر ، فتصايحت جنبات الوادى هاتفة : « طيبة ... » « طيبة ... » . وجرى اسمها على كل لسان

ولهجت به الأفئدة المضطرمة ، وما زالوا يهتفون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ ...

وعسكر الجيش العظيم ، ووقف أحمس فى قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذى حاكته توتيشيرى بيديها ، يرسل ناظريه الى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول :

ــ طيبة ... طيبة ... يا أرض المجد ... ومثوى الآباء والأجداد ، أبشرى فغدا يطلع عليك صبح جديد ...

## ١١

واستدعى الملك القائد أحمس ابانا وقال له :

ــ سأكل اليك أيها القائد ساحل طيبة الغربى فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك ، مستلهما خططك من الملابسات المحيطة بك .

وأنشأ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة ، فقال القائد محب :

ــ ان أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحا غالية ، ولكن ما من مهاجمتها بد ، فأبوابها الجنوبية هى السبيل الوحيد اليها .

وقال القائد ديب :

ــ ان محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها ، ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة فى تجويع طيبة ، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها . ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلالم والقباب الواقية ، ولكنها ليست كافية كذلك ، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة . وعلى أية حال اذا كان ثمن طيبة غاليا فسنبذله عن طيب خاطر .

فقال أحمس :

ـ هذا هو الرأى ، فينبغى ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة ، ويحتمل أن يتعرضوا لانتقام عدونا الوحشى .

وفى ذلك اليوم تقدم الأسطول المصرى نحو شاطىء طيبة الغربى والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس ، فأطبق عليه واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة ، ولكن كان تغلب المصريين فى عدد الرجال والسفن كبيرا ، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نارا حامية .

وأرسل أحمس طلائع من فرق القسى والرماح لاختبار القوات المدافعة ، فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم ، فاذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفد . وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم ، فلما صدر اليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم فى أرجاء الوادى لتهاجم السور فى نقط متباعدة ، محتمية بدروعها الطويلة ، فانهالت عليهم سهام العدو كالسيل . وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع ، ودار القتال بلا رحمة ، وكان المعسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفزين للقتال ، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة ، وقد روع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبا :

ـ ان جنودى لا يبالون الموت والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور وهو يلقى على الميدان بصرا زائغا :

ـ يا لها من معركة يا مولاى ... أرى الجثث تملأ الميدان ..

وكان القائد محب متجهم الوجه معفر الثياب فقال :

ـ ألسنا نهاجم الموت سافرا ؟..

فقال أحمس :

ـ لن أدفع بجيشى الى الهلاك المحقق ، ويحسن بى أن أرسل

عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية ، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره .

ولبث الملك مهتاج النفس ، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع ... وفى ذاك المساء عاد الرسول الذى كان بعثه الى أسرته فى نباتا يحمل رسالة من توتيشيرى ، فبسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتى :

« من توتيشيرى الى حفيدى ومولاى فرعون مصر أحمس بن كاموس ، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية ، ويوفق رأيه للسداد ، وقلبه للايمان ، ويده الى مقتل عدوه ، ... جاءنى رسولك ينعى الينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغنى كلمته الأخيرة الموجهة الى ، ويحسن بى ــ وأنت تقاتل عدونا ــ أن أضرب صفحا عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعا ، فقد قضى على قلبى أن يذوق الموت مرتين فى حياة قصيرة واحدة ؛ ولكن لا يعز العزاء على من يعيش فى أتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان الى الموت . ولا أكتمك ــ على ألمى وحزنى ــ ان رسولا يسعى الى بموت كاموس ونصر جيشنا ، أحب الى من أن يجيئنى كاموس بنبأ الهزيمة .. فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب الرقيقة المجتمعة حولى ، يتنازعها الحزن والتصبر والرجاء ، واعلم يا مولاى أننا نشد الرحال الى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا ، لنكون أدنى الى رسلك ، والسلام » .

قرأ أحمس الكتاب فاستشف ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حار ، وتمثلت له الوجوه التى ودعها فى نباتا . توتيشيرى بوجهها الناحل المكلل بالمشيب ، وجدته أحوتبى بجلالها وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها ، وزوجه نيفرتارى بعينيها الواسعتين

وقدها الرشيق ، وتمتم قائلا : « رباه ! ان توتيشيرى تتلقى طعنات الألم القـاتل بالعزاء والأمل ، ولا ينسيها حزنها أملنـا المنشود ، فلأذكر دائما حكمتها ولأتبعها بعقلى وقلبى » ...

# ١٢

وقام الأسـطول بواجبه بعد أن أسر أسـطول الرعاة ؛ فضرب الحصار حول شاطىء المدينة الغربى ، وبث الرعب فى أنفس أصحاب القصـور المطلة على النيـل ، وتبـادل اطلاق السهام مع حصون الشاطىء . ولكنه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولارتفاعها بسبب انخفاض النيل فى فصل الحصـاد ، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها . وكان أحمس ابانا تنازعه نفسه الى شـاطىء البلد الجنوبى حيث يقيم الصيادون ، ويخفق بحبه قلب حنون ، وظن أن هذا المكان قد يكون منفذه الى طيبة . ولكن الرعاة كانوا أكبر حذرا مما ظن فأخلوا الشاطىء من المصريين ، وشـغلوا مساحته الممتدة بالحراس المدرعين ..

أما الملك أحمس فقد عدل عن الهجوم بجمـاعات كثيفة ، وقدم للميدان نخبة من رجاله المدربين وراء الدروع الطويلة ، فاستبقوا مع المدافعين عن السورالعظيم فى حرب قوامها الفن ودقة التصويب ، ولم يتوانوا عن اظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية . واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشر بأى نتيجة أو تنبىء بأية نهاية ، فتململ الملك وقال :

ــ ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته .

ثم شد أحمس على مقبض سيفه وقال :

ــ سـآمر باسـتئناف الهجوم العنيف . واذا لم يكن من بذل

النفوس بد فلنقدم أنفسنا كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا مصر من نير عدوها الثقيل . وسأوجه رسلى الى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية ...

وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسى والرماح فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين ، وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ديب على الميسرة . ومضى المصريون يتقدمون فى موجات واسعة النطاق ، لا تلحق الموجة بسابقتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمى بالسور المرهوب . فلما تقدم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سورطيبة ، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم ؛ ولكن خسارتهم على أى حال كانت دون خسارة اليوم الأول . ودار القتال على هذا بضعة أيام أخر ، وكثر عدد القتلى من الجانبين ، واشتد ضغط جناح المصريين الأيمن للعدو حتى استطاع مرة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعددة ، وأن يهلك كل من يتصدى لاطلاق السهام من منافذها . وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلم هجوم وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، وسهام اخوانهم تغشاهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة الى الناحية المهددة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم ، وسر الملك لهذا الهجوم الذى ضرب مثلا رائعا لجيشه ، وقال لمن حوله :

— لأول مرة منذ بدء الحصار يقتل نفر من جنودى على سور طيبة .

والحق كان لهذه الخطوة مغزى عظيم ، فقد تكررت فى اليوم الثانى ، ثم وقعت فى غداته فى نقطتين من السور . ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدو حتى بات الغزو أملا مرجوا قريبا . وفى تلك

الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيرا ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار وسلالمه وعدد من القباب الواقية . فاستقبل الملك الجنود بسرور ، وقد تضاعف أمله فى النصر ، وأمر بتسييرهم فى الميدان أمام معسكره لتحييهم الجنود ويزدادوا بهم أملا وقوة ...

ودار القتال مع الغداة مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه ، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمة حتى بدا عليه الاعياء واليأس ، واعتور سواعده النصب ، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان :

ـ مولاى ... سنقتحم السور غدا ...

واجتمع رأى القواد جميعا على هذا ، فبعث أحمس برسول الى أسرته يدعوها الى هابو التى يرفرف عليها العلم المصرى ، ليدخلوا جميعا طيبة فى الغد القريب ... وبات الملك ليلته شديد الايمان كبير الأمل ...

## ١٣

وطلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوثبون ، توقع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر . ثم تقدمت جموعهم الى أماكنها وراء الدروع والقباب ، ونظروا الى أهدافهم غاضبين ، فرأوا منظرا عجبا لم يتوقعوا رؤيته ، فضجوا بالدهشة والانزعاج ، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول . رأوا على السور المحيط أجسادا عارية قيدت اليه ، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار اتخذ الرعاة منهم دروعا تحميهم شر نبالهم وقذائفهم ، ووقفوا خلفهن ضاحكين شامتين . وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن ، والأطفال الصغار وقد وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت

الأكباد جميعا ، فضلا عن أكباد من هم أزواجهن وأبناؤهن . فأسقط فى أيدى الرجال وشلت سـواعدهم ، وسرى الانزعاج فى النفوس حتى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء ، وصاح غاضبا :

ـ يا للوحشية الهمجية ... ان الجبناء يحتمون بأجسـاد النساء والأطفال ...

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة . ووضـح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبـة تحميه أجساد النسـاء والأطفال ، فاقشـعرت أبدانهم هولا ، واصفرت وجوههم غضبا ، وارتعشت أطرافهم ، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا فى الميدان أمامهم مكتوفى الأيدى ، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز . وصـاح حور بصوت متهدج :

ـ يا للبائسـات ... سيقتلهن توالى الليـل والنهار اذا لم تمزق قلوبهن السهام ...

ولفت الحيرة الملك ، وجعـل ينظـر الى الأسرى اللاتى يحمين بأجسـادهن وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيبتين . ما عسى أن يفعل ؟.. ان كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع ، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس . فما عسى أن يصنع ؟... هل جاء لخلاص شعبه أم للتنكيل به ؟... وهل أرسل رحمة أم عذابا ؟... وجعل يتمتم فى حزنه : « آمون ... آمون ... ربى المعبـود ... ان هـذا الكفاح لوجهـك وللمؤمنين بك ، فألهمنى الصـواب على أجـد لنفسى مخرجا » ... وتنبه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحيـة النيل ، عاين ومن حوله راكبها فاذا به قائد الأسطول أحمس ابانا . وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلا :

ـ مولاى لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين ؟... أما كان ينبغى أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن ؟...

فقال الملك بصوت حزين ثقيـل النبرات وهو يشير الى ناحية السـور :

ــ انظر لترى بنفسك أيها القائد ..

ولكن أحمس ابانا لم ينظر كما كانوا يتوقعون وقال بهدوء :

ــ آذتنى عيونى بالعمل الدنىء الوحشى ، ولكن كيف نرضى أن نساق الى أشراك أبوفيس ونحن به عالمون ؟...

هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر اشفاقا من أن تؤذى نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا ؟...

فقال الملك أحمس بمرارة :

ــ أترى أن آمر بتمزيق أجسـاد هؤلاء النسـوة البائسـات وأطفالهن ؟..

فقال القائد بحماس وثقة :

ــ نعم يا مولاى ، انهن قربان الـكفاح ، مثلهن مثل جنـودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين ، بل مثلهن مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس . فلماذا نشفق من ذهابهن هذا الاشفاق المعطل لكفاحنا ؟...

مولاى ... ان قلبى يحدثنى بأن أمى ابانا بين هؤلاء الأسـيرات البائسات . فاذا صدق شعورى فلا أشك فى أنها تدعو الرب الآن أن يجعل حبك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسـات . ولست الجريح وحدى فى جنودنا ، فليضع كل منا حول قلبه درعا من ايمانه وعزيمته ولنهجم ...

ونظر الملك الى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلب وجهه فى حاشيته وقواده ، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهما ممتقعا :

ــ صدق أحمس ابانا العظيم .

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

ــ نعم ... نعم ... صدق قائد الأسطول ولنهجم ...

فالتفت الملك الى القواد وقال بعزم :

ـ أيها القواد ، اذهبوا الى جنودكم وقولوا لهم ان مليكهم الذى فقد فى سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل ...

وذهب القواد سراعا ونفخ فى الأبواق ، فتقدمت صفوف الجند شاكى السلاح مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : « حياة امنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وبدأت فى الحال أبشع معركة خاض غمارها الانسان ، وأطلق الرعاة السهام فرد عليهم المصريون ، وانطلقت نبالهم تشق صدر نسائهم وتمزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة . ولوحت النسوة برءوسهن للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة : « اضربونا ينصركم الرب وانتقموا لنا .. » . فجن جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطشت الى الدماء ، ودوى صراخهم فى جنبات الوادى كعزيف الرعد وزئير الأسود ، واندفعوا لا يبالون الموت المنصب عليهم كأنما فقدوا الشعور والادراك وانقلبوا آلات جهنمية . وحمى وطيس القتال واشتد الطعان ، وسالت الدماء كأنها ينابيع تتفجر فى الصدور والأعناق ، وأحس كل هاجم أن فى قلبه غمزا جنونيا لا يسكن حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وتمكن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يسكت عدة مواضع دفاعية ، فبادر رجال الى اقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت ، فنقلوا القتال من الميدان الى أعلى السور الحصين ، وقفز بعضهم الى سطح السور الداخلى واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف . وتوالت الهجمات بعنف وبسالة ، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى ، ويرسل النجدات الى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد

جنوده تصعد الى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسط فى كبد السماء ، فقال :

ـ ان جنودى يبذلون جهد الجبابرة ، ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولى على السور جميعه ، فنستأنف غدا من جديد..

وأصدر الملك أوامره الى فيالق جديدة بالهجوم ، فاشتد ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع ، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة الى أعلاه . والظاهر أن اليأس أخذ يستولى على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار ، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة لم يكن يتوقعها أحد ، واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور ، وبدا سقوط السور أمرا محققا لا يحتاج الا لوقت . وكان أحمس لا ينفك عن ارسال الامدادات القوية ، وجاءه فى المعسكر ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه ، فانحنى للملك وقال :

ـ أخبار جليلة يا مولاى ... ان أبوفيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالفارين .

فعجب الملك وسأل الضابط قائلا :

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

فقال الرجل بثقة وايمان :

ـ رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح .

فقال أحمس ابانا :

ـ لقد أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه فى المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه ، ففر هاربا .

فقال حور :

ــ والآن أدرك على غيرشك أن الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شر وبيل .

وما كاد حور يتم كلامه حتى جاء رســول جديد من الأسطول فحيا الملك وقال :

ــ مولاى لقد شبت نيران الثورة فى طيبة ، وشاهدنا من الأسطول عراكا عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطىء من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على أحمس ابانا وسأل الضابط :

ــ وهل قام الأسطول بواجبه ؟

ــ نعم يا سيدى ، لقد دنت سفننا من الشاطىء وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتى لا تمكنهم من التفرغ لقتال الثائرين ...

فلاح الارتياح فى وجه القــائد ، واستأذن الملك فى العودة الى أسطوله ليهجم على الشاطىء ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطا :

ــ لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

ــ نعم يا مولاى ، وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها ...

ــ ولكن أبوفيس فر بجيشه .

ــ لن نكف عن الكفاح حتى تســقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة .

وعاد الملك الى مراقبة القتــال فرأى جنوده تقــاتل على أدراج الحصار وفى أعلى الســور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها . وصعدت فيالق الجند منحملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كل جانب ، وأحاطت بالرعاة وأعمــلت فيهم القتــل والذبح . وما لبث أن رأى جنــوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبــة الخفاق . ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة تنفتح على مصراعيها وجنوده

تندفع الى داخلها هاتفة باسمه ، فتمتم قائلا بصوت خافت : «طيبة... يا منبع دمى ... ومنبت جسدى ... ومرتع روحى ... افتحى ذراعيك وضمى الى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل » . ثم حنى رأسه ليخفى دمعة منتزعة من ضلوعه ، وكان حور الى يمينه يصلى ويجفف عينيه وقد تندى خداه النحيلان ...

## ١٤

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغيب ، وأقبل الملك والقائدان محب وديب ، ثم تبعهما على الأثر أحمس ابانا فانحنوا لأحمس فى اجلال وهنأوه بالنصر ، فقال أحمس :

— ينبغى قبل أن يهنىء بعضنا بعضا أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا فى سبيل طيبة ، فائتونى بها جميعا ...

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب ، وقد عفرتها الأتربة وخضبتها الدماء ، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام وساروا بها الى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبا الى جنب ، وأتوا بالنساء والأطفال اللاتى مزقتهن سهام جنودهن ووضعوهن فى مكان منعزل . وتوجه الملك الى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المتراصة انحنى فى اجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله . ثم سار فى خطى بطيئة مارا بها كأنما يستعرضها فى حفل رسمى مشهود ، ثم عدل الى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجوا أجسادهن العارية بأغطية من الكتان ، فأظلت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه ، وتنبه

من كمده على صــوت القائد أحمس ابانا وهو يصــيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلا : « أماه » ...

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألمــا متفجعا أمام احدى الجثث ، فألقى عليها الملك نظرة فاحصــة فعرف الســيدة ابانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء المروع . فوقف الملك الى جانب قائده الجاثى خاشــعا حزين الفؤاد ، وكان يكن للســيدة احتراما عظيما ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضــلها فى تربية أحمس خير قواده بلا نزاع . ورفع الملك رأسه الى السماء وقال بصوت متهدج : « أيها الرب المعبود آمون ، خالق الكون ، وواهب الحياة ، ومنظم كل شيء بسننه العالية ، هذه ودائعك ترد اليك تبعا لمشيئتك ، وقد كانوا فى عالمنا يعيشــون لغيرهم وكذلك ماتوا . انهم قطع عزيزة تناثرت من قلبى ، فتغمدهم برحمتك ، وعوضهم عما فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبدية باقية . والتفت الملك الى الحاجب حور وقال :

ـــ أيها الحاجب أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعا وتودع مقابر طيبة الغربية ، ولعمرى ان أحق الناس بأرض طيبة من استشهدوا فى سبيلها ...

وعاد فى تلك الأثناء الرسول الذى كان أرسله الملك الى أسرته فى دابور وقدم الى مولاه رسالة ، فعجب الملك وسأله :

ـــ هل عادت أسرتى الى هابو ؟

فقال الرجل :

ـــ كلا يا مولاى .

فبسط أحمس الرسالة وكانت موجهة من توتيشيرى وقرأ :

« مولاى المظفر المؤيد بروح آمون وبركته ، أســأل الرب أن يبلغك كتابى هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابهــا فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمد جراحها ، وتسعد روحى سيكننرع وكاموس . أما نحن فلن نبرح دابور ، وقد فكرت فى الأمر طويلا فوجدت أن

خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذب عذابه وآلامه ، أن نبقى فى منفانا حيث نحن الآن نعانى آلام الوحشة والغربة ، حتى تحطم أغلاله وترفع عنه النقمة ، فندخل مصر آمنين وتقاسمه السعادة والسلام . فسر فى طريقك مؤيدا بالعناية الربانية تحرر البلدان وتقهر الحصون . وطهر أرض مصر من عدوها ولا تجعل له فى أقطارها موضع قدم ، ثم ادعنا نأت آمنين » .

ورفع أحمس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم :

ـ تقول توتيشيرى انها لا تدخل مصر حتى نجلى عنها آخر رجل من الرعاة ...

فقال حور :

ـ ان أمنا المقدسة تريد ألا نكف عن القتال حتى نحرر مصر .

فهز الملك رأسه بالموافقة ، فتساءل حور :

ـ ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟

فقال أحمس :

ـ كلا يا حور ، سيدخلها جيشى وحده ، أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة . ندخلها جميعا كما فارقناها جميعا منذ عشرة أعوام مضت .

ـ سيمنى أهلوها بخيبة أمل ؟...

ـ قل لمن يسأل عنى انى أتعقب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدسة ، وليتبعنى من يحبنى ...

## ١٥

ورجع الملك الى الخيمة الفرعونية ، وكان فى نيته أن يصدر أمره الى قواده بأن يدخلوا المدينة فى نظامهم التقليدى على أنغام الموسيقى الحربية ، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال :

ـــ مولاى كلفنى قوم من قادة الثورة أن استأذن لهم فى المثول بين يديك ، ليقدموا لذاتك العلية هدايا مما غنموا فى ثورتهم .

فابتسم أحمس وسأل الضابط :

ـــ أقادم أنت من المدينة ؟

ـــ نعم يا مولاى .

ـــ هل فتحت أبواب معبد آمون ؟

ـــ فتحها الثوار يا مولاى .

ـــ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر نوفر آمون لتحيتنا ؟

ـــ يقولون يا مولاى انه أقسم ألا يبرح خلوته وفى مصر رجل من الرعاة الا عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك وقال :

ـــ حسنا ... ادع قومى ...

وبرح الرجل الخيمة ومضى الى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسيرون جماعات جماعات ، تسوق كل جماعة هديتها . واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة الا من أزر على أوساطهم ، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر ، ويدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة تعرت رءوسهم وتلبدت لحاهم وتعفرت جباههم . ثم سجدوا للملك حتى مست الأرض جباههم ، ولما رفعوا وجوههم اليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور ، وقال كبير القوم :

ـــ مولانا أحمس بن كاموس بن سيكننرع بن فرعون مصر

ومحررها وحاميها ، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التى استشهدت أصولها فى سبيل طيبة المجيدة ، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرا عن اساءة الأيام الينا ...

فقال أحمس مبتسما :

ــ أهلا بقومى الأعزة ، من آمالهم كآمالى ، وآلامهم من منبع آلامى ، ولون بشرتهم كلون بشرتى ...

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج ، ووجه كبيرهم الخطاب الى الرعاة قائلا :

ــ اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده .

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الرجل :

ــ مولاى هؤلاء الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغيرالحق ، كأنما توارثوها عن آبائهم خلفا عن خلف ، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشق الأعمال بأزهد الأجور ، وجعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل . ثم كانوا اذا دعوهم قالوا باحتقار فلاحون ، ومنوا عليهم أن تركوهم أحياء ... هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم الى ذاتكم العلية عبيدا من أذل عبيدك ...

فابتسم الملك وقال :

ــ أشكر لكم ياقومى هديتكم ، وأهنئكم على استرداد سيادتكم وحريتكم ...

وسجد الرجال لمليكهم مرة أخرى وغادروا الخيمة ، وساق الجنود الرعاة الى معتقل الأسرى . ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة بظهره وذراعيه ، فسقط اعياء عند قدمى الملك دون أن يحفل به معذبوه ، وسجدوا لمليكهم طويلا وقال رجل منهم :

ــ مولانا فرعون مصر بن الرب آمون ، هذا الشريرَ المؤزر بلباس

الذل كان كبير شرطة طيبة ، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسى لأتفه الأسباب ، فمكننا الرب منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتى مزق جلده ، وأتينا به الى معسكر الملك ليضم الى عبيده ...

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند ، وشكر لقومه صنيعهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلا ما ان وقع عليه بصر الملك حتى عرفه ، فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر . فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت اليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدقان ، وحيا الرجال الملك وقال لسانهم :

— اليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة ، كان يقسم بالعدالة ويقضى بالظلم فى كل حين ، فأورد مشرب الظلم ليذوق ما كان يسقى الأبرياء .

فقال أحمس موجها خطابه للقاضى :

— يا سنموت لقد كنت حياتك تحكم على المصريين ، فرض نفسك هذه المرة على أن يحكموا عليك .

ودفع به الى جنوده ، وشكر رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى ستار من الكتان من ذؤابته الى نعليه ، فحيوا الملك هاتفين : وقال قائلهم :

— يا فرعون مصر وحامى المصريين والمنتقم لهم ، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وادرعوا بهن فى موقعة طيبة . وأراد الرب أن ينتقم لنا من أبوفيس الظالم فهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه ، وخطفنا دون علمه من هى أعز عليه من نفسه ، وجئنا بها اليك لتنتقم لنسائنا منها ...

ودنا الرجل من الشخص المتخفى فى دثار الكتان وأزاح عنه الستار ، فبدت امرأة عارية الا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية

كالنور ، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الحنق والغضب والكبرياء . فبهت أحمس ، ونظر اليها ونظرت اليه فبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والحنق والكبرياء ، وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق : « الأميرة أمنريدس ... » .

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها ، وصاح أحمس برجاله :

ـ لماذا تمثلون بهذه المرأة ؟...

فقال زعيم القوم :

ـ انها ابنة كبير السفاكين أبوفيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطشين للانتقام، فقال :

ـ لا تمكنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدسة ، فالفاضل حقا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب ، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى .

فقال رجل من القوم موتور :

ـ يا حامى المصريين ان شفاء صدورنا فى ارسال رأس هذه المرأة الى أبوفيس .

فقال أحمس :

ـ هل تحثون مليككم على أن يكون كأبوفيس سفك دماء وقتل نساء ؟... كلوا الأمر الى وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا . ونادى الملك أحد ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضى بالأميرة الى سفينته الفرعونية ، وأن يحوطها بالعناية .

وكان الملك يكابد ثورة فى القلب والنفس فلم يحتمل القعود ، فأصدر أمره الى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر

بالبصر . ولما تحول الى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين ...

## ١٦

وخلا الميدان فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه ، وكان يحث سائق عجلته على السرعة ويغرق فى الأحلام والأفكار . أى صدمة تعرض لها قلبه اليوم ؟... أى مفاجأة كابدها وعاناها ؟... ولم يكن يدور له بخلد أنه سيلقى أمنريدس مرة أخرى فمنى باليأس منها ، وتمثلت له كحلم جميل أضاء ليله ساعة ثم ابتلعته الظلماء . ولكنه رآها مرة أخرى على غير انتظار أو حسبان ، ألقت بها المقادير الى رحمته فغدت بغتة فى ملكه الخاص . لشد ما اضطرب صدره وخفق قلبه ، لشد ما تيقظت فى نفسه عواطف حارة أجيت من جديد ذكرياته الحلوة ، فانغمر فى تيارها الحنون ناسيا كل شيء ...

ولكن هى ، هل عرفته يا ترى ؟... واذا لم تكن عرفته فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد اسفينيس ؟... الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف «الى اللقاء» ؟ ومن حنت اليه فى منفاه فبعثت اليه برسالة كمن الحب فى سطورها كمون النار فى الحجر ؟... أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية ؟... رباه ... ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حد لها ؟.. هل يصدقه قلبه أم يخدعه ؟ وتمثل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون اليه ، فانتفض جسمه القوى وسرت فيه قشعريرة ، وتساءل حزينا والقوم الغاضبون من حولها يبصقون عليها ويسبونها ويلعنون أباها ؟... وانه ليذكر ما كان يلوح فى وجهها من الغضب والحنق والكبرياء ، فهل يسكت غضبها اذا علمت أنها أسيرة اسفينيس ؟ وأحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف ، وكان

ركبه بلغ الشاطىء فهبط الى السفينة الفرعونية ، ودعا اليه الضابط الذى عهد اليه بالأميرة وسأله :

ـ كيف حال الأميرة ؟

ـ وضعت يا مولاى فى مخدع خاص وجىء لها بثياب جديدة وقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسه ، وعاملت الجنود معاملة تنطوى على الاحتقار ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك ...

فبدا على الملك عدم الارتياح ، وسار بخطوات هادئة الى المخدع ، ففتح البـــاب أحد الحراس ورده بعد دخول الملك . وكان المخدع صغيرا أنيقا يضيئه مصباح كبير يتدلى من سقفه ، والى عين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة فى ثوب بســيط من الكتان وقد مشطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة . فنظر اليها مبتسما فرآها تنظر اليه فى دهشة وغرابة وهى لا تصدق عينيها ، وبدت له كأنما هى فى حيرة وشك ، فحياها قائلا :

ـ طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه ولكنها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكا ، وكان الشاب يطيل النظر اليها فى شغف وافتتان فسألها :

ـ هل يعوزك شىء ؟

فتفرست فى وجهه ، ثم صعدت بصرها الى خوذته وخفضته الى درعه وسألته :

ـ من أنت ؟

فقال والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ـ أدعى أحمس فرعون مصر .

فلاح الانكار فى نظـرة عينيهـا . وأراد أن يزيدها حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه انها لا تسـتطيع أن تصدق عينيها . ورآها تنظر الى شعره المجعد بغرابة فقال كالدهش :

ــ مالك تنظرين الى هكذا كأنك تعرفين لى شبيها ؟

فلم تدر ما تقول ولم تحر جوابا ، واشتاق الى سماع صوتها والتماس حنانها فقال لها :

ــ هبى اننى أجبتك أنى أدعى اسفينيس فهل تردين على ؟

وما كادت تسمع اسم اسفينيس حتى قامت واقفة وصاحت به :

ــ اذن أنت اسفينيس .

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها وهو يقول :

ــ نعم أنا اسفينيس أيتها الأميرة أمنريدس .

فجذبت معصمها بشدة وقالت :

ــ انى لا أفهم شيئا .

فابتسم أحمس وقال برقة :

ــ ماذا تعنى الأسماء ؟ .. كنت بالأمس أدعى اسفينيس وأدعى اليوم أحمس ، ولكنى شخص واحد وقلب واحد ...

ــ يا للغرابة ... كيف تقول أنت شخص واحد ؟ .. كنت تاجرا تبيع الحلى والأقزام وأنت اليوم تقاتل وترتدى ثياب الملوك .

ــ ولم لا ؟ .. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفيا وأنا اليوم أقود قومى لتحرير بلدى واسترداد عرشى المسلوب ...

فنظرت اليه نظرة طويلة تحير فى ادراك كنهها . وحاول أن يدنو منها مرة أخرى ولكنها صدته باشارة من يدها وجمدت قسمات وجهها وتبدت القساوة والكبرياء فى عينيها ، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بلابل الرجاء المغردة فى صدره ، وسمعها تقول بشدة :

ــ ابتعد عنى .

فقال لها برجاء :

ــ ألا تذكرين ...

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذى اشتهر به قومها :

ــ أذكر وسأذكر دائما أنك جاسوس وضيع ...

فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب ، وقال بغضب :

ــ أيتها الأميرة ... ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟

ــ أى ملك يا هذا ؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة :

ــ فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

ــ وأبى أيكون أحد ولاتك ؟ !

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعا ، فقال :

ــ ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاتى ، ولكنه مغتصب على عرش بلادى . وقد هزمته شر هزيمة وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنتــه تقع أسيرة بين أيدى القوم الذين ظلمهم ، وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلوذ بالصحارى التى قذفته الى وادينا ... ألا تدركين هذا ؟ ... أما أنا فملك هذا الوادى الشرعى لأنى من سلالة فراعنــة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفر أسترد بلادى عنوة واقتدارا .

فقالت ببرود وسخرية :

ــ طبت من ملك يبرع قومه فى مقاتلة النساء ...

ــ يا للعجب ... ألا تعلمين أنك مدينة لقومى هؤلاء بحياتك !... لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التى استنها أبوك فى تعريض النساء والأطفال لنبال المقاتلين ...

ــ وهل تضعنى على قدم المساواة مع أولئك النسوة ؟

ــ ولم لا ؟ ...

ــ معذرة أيها الملك ... فانه يكبر على أن أتصور أنى مثل احدى نسائكم أو أن أحدا من قومى مثل أحد من قومكم الا أن يتساوى

السادة والعبيد ... ألا تعلم أن جيشنا غادر طيبة لايحس ذل المغلوب، وكانوا يقولون باستهانة ثار عبيدنا وسنكر عليهم ...

وجن جنون الملك وغلبه الغضب على أمره ، فصاح بها :

ــ من العبيد ومن السادة ؟ .. انك لا تدركين شيئا أيتها الفتاة المغرورة لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادى الذى يوحى بالمجد والعزة ، ولو تأخر مولدك قرنا من الزمان لولدت فى أقصى صحارى الشمال الباردة ، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا . من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا وجعلوا أعزته أذلة ، ثم قالوا جهلا وغرورا انهم أمراء واننا فلاحون عبيد ، وانهم بيض واننا سمر . اليوم يأخذ العدل مجراه فيرد السيد الى سيادته ، وينقلب العبد الى عبوديته ، ويصير البياض سمة الضاربين فى الصحارى الباردة ، والسمرة شعار سادة مصر المطهرين بنور الشمس ...

هذا الحق الذى لا مراء فيه ...

فاحتدم الغيظ فى قلب الأميرة واندفع الدم الى وجهها ، وقالت باحتقار :

ــ أنا أعلم أن أجدادى هبطوا مصر من الصحراء الشمالية ، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا الوادى ؟ ... كانوا وما يزالون سادة ذوى كبرياء ونخوة ، لا يعرفون سوى السيف سبيلا الى هدفهم ، ولا يتخفون فى ثياب التجار كى يطعنوا اليوم من سجدوا له بالأمس القريب ...

فحدجها بنظرة قاسية متفحصة ، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف ، وتتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية ، فاشتد به الحنق ، وأحس رغبة حارة الى اخضاعها واذلالها ولا سيما بعد أن أذلت عواطفه بكبريائها وصلفها ، فقال بصوت هادىء متعال :

ــ لا أرى سببا يدعونى الى الاستمرار فى مجادلتك ، ولا يجوز أن أنسى أنى ملك وأنك أسيرة .

ـ أسيرة كما تشاء ، ولكنى لن أذل أبدا .

ـ بل انك تحتمين برحمتى فتؤاتيك هذه الشجاعة .

ـ لم تفارقنى شجاعتى قط ... سل رجالك الذين خطفونى غدرا ينبئوك عن شجاعتى واحتقارى لهم فى أحرج الأوقات وأشدها خطرا على .

فهز كتفيه العريضين استهانة ، وتحول الى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :

ـ لقد قلت حقا انى أسيرة ، وليست سفينتك بالمكان الذى يصلح للأسرى فألحقنى بأسرى قومى ...

فنظر اليها مغيظا محنقا وقال يغيظها ويخيفها :

ـ ليس الأمر كما تتصورين ، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخرون عبيداً ، أما النساء فيلحقن بحرم الملك الظافر ...

فقالت وقد اتسعت حدقتاها :

ـ ولكنى أميرة ...

ـ كنت أميرة ... ولست الآن سوى أسيرة .

ـ كلما ذكرت أنى أنقذت حياتك يوما يجن جنونى ...

فقال بهدوء :

ـ فلتحى هذه الذكرى ... فبفضلها أنقذت حياتك من أيدى الثائرين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك الى أبوفيس .

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبا حانقا ، وحياه الحراس فأمرهم بالابحار الى شمال طيبة ، وسار الى مقدمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مالئا صدره بهواء الليل الرطيب ، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل تشق الظلماء الى شمال طيبة . فأرسل الملك بناظريه الى المدينة فارا اليها من هموم نفسه ، وكان النور يشع من سفن الأسطول الراسية الى شاطىء المدينة ، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة فى الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارون . ولاحت على البعد

من بين القصــور والحدائق أضواء المشاعل التى يحملها الســاهرون الفرحون ، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد، فجرت على فمــه العريض ابتسامة ، وأدرك أن طيبــة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة وأعيادها الخالدة ...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى حتى حاذته فى مسيرها ، ورأى الملك القصر مضاء يشع النور من نوافذه وحديقته ، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره ، وأنه عاد حقا الى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع . وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر فعادته الذكرى الأليمة ، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته الحزينة وهربت بها الى أقاصى الجنوب والدماء تنفجر من ورائها ...

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدم السفينة ، واتجه بصره مرات الى مخدع الأميرة المغلق ثم تساءل متبرما ساخطا : لماذا جاءونى بها ؟ ... لماذا جاءونى بها ؟ ...

## ١٧

وفى صباح اليوم الثانى بكر حور والقواد والمستشارون الى زيارة الملك فى سفينته الراسية شمال طيبــة ، فاستقبلهم الملك فى المقصــورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الوقور الهادىء :

ــ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر ، لقد خلفنا وراءنا أبواب طيبــة يخفق قلبها بالأفراح ، ويهزها الشوق الى اجتــلاء نور جبين مخلصها ومحررها .

فقال أحمس :

ــ لتفرح طيبة ، أما اللقاء فحين يقضى الرب بالنصر .

فقال حور :

ــ وذاع بين الأهلين أن مليكهم فى طريق الشمال وأنه يرحب بمن يلحق به من القادرين ، ولا تسل يا مولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب ، ولا عن تهافتهم على الضباط ليضموهم الى جيش أحمس المعبود .

فابتسم الملك وسأل رجاله :

ــ وهل زرتم معبد آمون ؟

فقال حور :

ــ نعم يامولاى زرناه جميعا ، وهرع اليه الجنود يتمسحون بأركانه ويعرغون وجوههم فى ترابه ويعانقون كهنته . وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وترددت صلاتهم فى جنبات المعبد ، فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبيون جميعا فى صلاة جامعة ، أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته ...

فابتسم الملك ، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس ابانا صامتا مكتئبا فأشار اليه أن يقترب ، فاقترب القائد من مولاه ، ووضع الملك يده على منكبه وقال له :

ــ تحمل نصيبك من الأذى يا أحمس ، واذكر أن شعار أسرتك الشجاعة والبذل .

فحنى القائد رأسه شاكرا وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه ، ونظر أحمس الى رجاله وقال :

ــ أشيروا على فيمن أختاره حاكما لطيبة ، وأعهد اليه بمهمة تنظيمها الشاقة ...

فقال القائد محب :

ــ ان خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور . . .

ولكن حور بادر يقول :

ــ ان واجبى فى السهر على خدمة مولاى لا فى التخلف عنه .

فقال أحمس :

ـــ صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .

فقال حور :

ـــ يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأى هو توتى آمون وكيل معبد آمون ، فاذا شاء مولاى فليعهد اليه بشئون طيبة .

فقال أحمس :

ـــ قد وليناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله الى تناول الفطور على مائدته

## ١٨

ومضت ساعات النهار والجيش يضمد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب ، واستبق الجنود الطيبيون الى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس ، وصارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا الخافق . أما أحمس فلم يبرح سفينته ، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله عنها فقال له الرجل انها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما . وكان يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ويعهد بها الى حراس أمناء ، ولكنه لم ينته من تفكيره الى عزم قاطع ، ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته ، وأيقن أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبوفيس هذه الحظوة لديه . وكان يعرفه حق المعرفة ، ويعلم أنه لايشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو فكانت عواطفه متعطشة فائرة ، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته ، أو فى صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب ، فان الغضب لا يقتل الحب ولكنه يحجبه حينا من

الزمن كما يكدر الضباب وجه المرآة المصقولة الى حين ، ثم ينقشع عنها فيعود اليها الصفاء . ولذلك لم يسلم لليأس ، وجعل يقول لنفسه متعزيا لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع فى الأسر ، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحب فتلين وتذعن وتؤدى للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه ، أليست هى صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ومنحته العطف والمودة ؟ ... أليست هى التى أقلقها غيابه فكتبت اليه رسالة عذل تضمر أنين الحب المكتوم ؟ ... فكيف تذوى عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب ؟ ... وانتظر الأصيل ثم هز كتفيه العريضين استهانة وذهب الى المخدع ، وحياه الحرس وأوسعوا له فدخل كبير الرجاء . ورآها تجلس فى جمود وهدوء تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل ! فآلمته كآبتها وقال لنفسه : كانت طيبة على رحابتها تضيق بها فكيف وقد حبست فى هذا المخدع الصغير ؟ ... ووقف أمامها جامدا فاستوت فى جلستها ورفعت اليه عينين باردتين ، فقال لها برقة :

ـ كيف كانت ليلتك ؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر الى الأرض ، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوقة ، وأعاد سؤاله قائلا وقد ظن أن أمله قريب :

ـ كيف كانت ليلتك ؟

وبدا عليها كأنها لا تريد أن تخرج عن الصمت ، ولكنها رفعت بحدة وقالت :

ـ كانت أسوأ ليالى ...

فأغضى عن لهجتها وسألها :

ـ لماذا ؟ .. هل يعوزك شىء ؟ ...

فقالت دون أن تغير لهجتها :

ــ يعوزني كل شيء .

ــ كيف ؟ .. لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بتبرم قائلة :

ــ لا تتعب نفسك في ذكر هذا ... فانه يعوزني كل شيء أحبه ، يعوزني أبي وقومي وحريتي . ولكن لدى كل ما أكرهه . . . هذه الثياب وهذا الطعام وهذا المخدع وهؤلاء الحراس ...

فمنى بالخيبة مرة ثانية وأحس انهيار آماله وذهاب رجائه ، فجمدت أساريره وقال لها :

ــ أتريدين أن أفك أسرك وأرسلك الى أبيك ؟

فهزت رأسها بعنف وقالت بشدة :

ــ كلا ...

فنظر اليها متعجبا متحيرا ، ولكنها استدركت بمثل هذه اللهجة قائلة :

ــ كيلا يقال ان ابنة أبوفيس ضرعت الى عدو أبيها العظيم أو أنها استحقت الرثاء يوما ...

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها :

ــ انك لا تتحرجين في اظهار صلفك اطمئنانا منك الى رحمتي ...

ــ كذبت ...

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال :

ــ يالك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم ، هل تعلمين ما تستوجبه اهانة الملك من عقاب ؟ هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم ؟... أنا لو شئت لجعلتك تجثين عند قدمي أصغر جنودي سائلة الصفح والتوبة ...

وأدام اليها النظر ليرى أثر تهديده في نفسها فوجدها تتحداه بعينيها القاسيتين لا تغضيهما ، والغضب يسارع اليها اسراعه الى بني قومها جميعا ، وقالت بحدة :

ـ نحن قوم لا يعرف الخوف الى قلوبنا سبيلا ، ولا يذل كبرياؤنا حتى تطوى السماوات أيدى البشر .

وتساءل فى غضبه هل يجرب اذلالها ؟ .. لماذا لا يذلها ويدوس كبرياءها بقدمه ؟ .. أليست هى أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه ؟ .. ولكنه لم يرتح الى هذا الهوى ، كان يطمع فيما هو أعذب وأجمل . فلما أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واحتد غضبه فزهد فى استذلالها ، على أنه أظهر غير ما يبطن فقال بلهجة كلهجتها كبرياء :

ـ ان مشيئتى لا تقتضى تعذيبك فلن تعذبى لذلك ... وانه لمن أعجب الأمور أن يفكر انسان فى تعذيب جارية حسناء مثلك .

ـ بل أميرة ذات كبرياء .

ـ كان هذا قبل أن تقعى أسيرة فى يدى ...

أما أنا فأوثر أن أضمك الى حريمى على أن أعذبك ، ومشيئتى هى النافذة ...

ـ ستعلم أن مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا على ، وانك لن تمسنى حية ...

فهز كتفيه استهانة ولكنها استدركت قائلة :

ـ من عاداتنا المتوارثة أنه اذا وقع فرد منا فى أشراك ذل ولم يستطع النجاة ، امتنع من الأكل حتى يقضى كريما ...

فقال متهكما :

ـ حقا ؟ ... ولكنى رأيت قضاة طيبة يساقون الى فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة ...

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت ، وضاق الملك بحديثها ذرعا وكان يعانى مرارة الخيبة فلم يطق البقاء ، وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :

ـ لن تجدى حاجة الى الامتناع عن الطعام ...

وغادر المخدع مغضبا ساخطا وقد بيت نيته على أن ينقلها الى سفينة

أخرى ، لكن ما كاد غضبه يسكت حين خلا الى نفسه فى المقصورة حتى عدل عن نيته فلم يصدر أمره ...

## ١٩

ومثل الحاجب حور بين يدى الملك فى مقصورته وقال :

ــ مولاى ، جاء رسل من قبل أبوفيس يستأذنون فى المثول بين يديك ...

فعجب أحمس وسأله :

ــ ماذا يريدون ؟

فقال الحاجب :

ــ قالوا انهم يحملون رسالة لذاتك العلية ...

فقال أحمس :

ــ ادعهم على عجل ...

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط الى الرسل ، وعاد الى مولاه ينتظران . ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرذمة من ضباط الحرس ، وكانوا ثلاثة يتقدم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج . وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة من الحجاب ، بيض الوجوه طوال اللحى ، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء ، ووقفوا فى غطرسة ظاهرة ، فرد أحمس تحيتهم فى كبرياء وسألهم :

ــ ماذا تريدون ؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجمية متغطرسة :

ــ أيها القائد ...

ولكن حور لم يمكنه من اتمام عبارته فقال له بهدوئه الطبيعى :

ــ انك تحدث فرعون مصر يارسول أبوفيس ..

فقال الزعيم :

ـ الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد ، وما دام لنا رجال وفى أيدينا سلاح فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له ...

فأومأ أحمس الى حاجبه بالسكوت وقال للرسول :

ـ تكلم فيما جئت من أجله ...

فقال الزعيم :

ـ أيها القائد ، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس كريمة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون ؟

فحدج الملك الرسول بنظرة قاسية وقال :

ـ هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة ؟ ... ألم يذكر كيف عرضهن لسهام أبنائهن وأزواجهن تمزقهن شر ممزق ، وجنودكم الجبناء مدرعون بهن ؟ ..

فقال الرجل بحدة :

ـ ان مولاى لايتنصل من تبعة عمله ، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة ...

فهز أحمس رأسه بنفور وقال :

ـ بل الحرب نزال بين الرجال ، يفصل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء ، وهى عندنا صراع لا ينبغى أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين ... على أنى أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك عمله وهذا رأيه فى الحرب ؟ ...

فقال الرسول بأباء :

ـ ان مولاى يستفهم لغاية فى نفسه ، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق ...

وتفكر أحمس مليا ، ولم يغب عنه الباعث الذى حدا بعدوه الى

السؤال عن ابنته ، ولذلك قال بوضوح وبلهجة تنم عن الاحتقار :

ــ عد الى مولاك وقل له ان الفلاحين قوم شرفاء لايغتالون النساء ، وان الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم ، وان ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها ...

فبدا على الرجل الارتياح وقال :

ــ لقد أنقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالا ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة .

فقال له أحمس :

ــ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .

فصمت الرجل مليا ثم قال :

ــ وقد أمرت ألا أعود حتى أراها بنفسي :

وبدا الانكار على وجه حور ، ولكن أحمس بادر الرسول قائلا :

ــ ستراها بنفسك .

فأشار الزعيم الى الصندوق العاجي الذي يحمله تابعاه وقال :

ــ وهذا الصندوق يحوي بعض ثيابها ، فهل تأذن لنا في تركه في حجرتها ؟ ..

فسكت الملك هنيهة ثم قال :

ــ لك هذا .

ولكن حور مال الى مولاه وهمس قائلا :

ــ ينبغي أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك على رأي حاجبه ، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدي الملك ، ثم فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبا ثوبا ، وعثر بحق صغير فأمسك به وفتحه فاذا ما به عقد ذو قلب زمردي . وارتعد قلب الملك لمرآه ، وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآلئه يوم كان يدعى اسفينيس ويبيع اللآلىء ، فتورد وجهه ، أما حور فقال :

ــ هل السجن مكان صالح للزينة !

فقال الرسول :

ـ هذا العقد حلية الأميرة المفضلة نديها ، فان شاء القائد أبقيناه والا أخذناه معنا .

فقال أحمس :

ـ لا بأس بابقائه .

ثم التفت الملك الى الضباط وأمرهم باصطحاب الرسل الى مخدع الأميرة ، ومضت الرسل ومضى الضباط فى أثرهم ...

## ٢٠

وفى ذاك المساء لحقت بالجيش قوات آتيـة من الجنوب من مدربى أبولينوبوليس وهيراكنبوليس ، ورست فى ميناء طيبـة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصار موجهة من أمبوس ، وبشر ربانها الملك بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان المدربين . وانضم الى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عما فقده من الرجال وأربى عدده على اليوم الذى اخترق الحدود غازيا . ولم ير الملك داعيا الى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد ، وتودع الجنود من طيبة وأهلها ، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد . وعند مطلع الفجر نفخ الجنود فى الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صفوفا صفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ويسير فى مقدمته الملك وحرسه ، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأسطول بقيادة أحمس ابانا يشق مياه النيل بوحداته القوية . توثبوا جميعا للقتال ، وشحذ النصر ارادتهم فجعلها كالحديد أو أشد صلابة . واستقبل الجيش فى القرى بحماسة دافقة ، وهرع الفلاحون الى طريقه هاتفين يلوحون بالأعلام وسعف النخل . واجتاز سبيله آمنا

فأضحى فى شنهور ودخلها بغير مقاومة ، ثم أمسى فى قسى ففتحت له أبوابها . وباتوا جميعا فى قسى واستأنفوا المسير مع الفجر ، وجدوا فى حتى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادى الذى ينتهى بالمدينة ، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرءوس ، وذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى لعشرة أعوام خلت أو يزيد ، وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه ، وحار بصره فى جنبات الميدان وهو يتساءل ترى فى أى مكان سقط . ولاحت منه التفاتة نحو حور فرأى وجهه ممتقعا وعينيه مغرورقتين بالدموع ، فاشتد به التأثر وقال له :

ـ يا للذكرى المؤلمة ...

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة :

ـ كأنى أستمع الى أرواح الشهداء التى يعمر بها جو هذا المكان المقـدس ...

فقال القائد محب : لشد ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا ...

وجفف حور دمعه وقال للملك :

ـ فلنصل جميعا يا مولاى على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل .

وترجل أحمس وقواده وحاشيته وصلوا جميعا صلاة حارة ...

## ٢١

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر ، فهتف الجنود لذكرى سيكننرع طويلا . ثم زحف الجيش الى تنتيرا دون أن يجد أدنى مقاومة . وكذلك استرد ديوس بوليس برفا . ثم سـار فى طريق أبيدوس وهو يتوقع أن يلقى الرعاة فى واديها ، ولكنه لم يعثر برجل من العدو ، فعجب أحمس وتساءل قائلا :

ـــ أين أبوفيس وأين جيوشه الجرارة ؟

فقال حور : لعله لا يريد أن يلقى عجلاتنا بمشاته .

ـــ وحتام تدوم هذه المطاردة ؟

ـــ من يعلم يا مولاى ؟ .. لعلها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس، حصن الرعاة الحصين الذى شيدوا أسواره فى قرن من الزمان . ولسوف يدمى قلب مصر قبل أن تخترقه جنودنا .

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص فدخلها دخول الجيش المظفر، واستراح بها يومه ...

وكان أحمس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة ، ولأنه كان يتوق الى أن ينغمر فى القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزان فؤاده . ولكن أبوفيس أبى عليه هذه الراحة ، فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة ، وقلبه ينازعه اليها على ما به من موجدة عليها . وذكر أحلامه حين ظن أن أسعد الأقدار هى التى دفعتها الى أسره وحين طمع أن يجعل من سفينة الأسر جنة من جنان الحب . ثم ذكر ما فعل به اباؤها وغضبها ، وكيف صيره مريضا محروما من أشهى الثمار وهى ناضجة دانية . وكانت رغبته الى الحب قوية لا تقاوم فجرفت بتيارها الدافق عوائق التردد والكبرياء ، فذهب الى السفينة وقصد الى المخدع المسحور ودخل . وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفة فى ثوب من أثواب منف الرقيقة . وكأنما عرفت وقع خطاه فلم ترفع اليه رأسها وظلت تنظر الى مابين قدميها . وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلين فأحس رعدة تصدع صدره ، ونازعته الرغبة الى أن يرتمى عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتى من قوة وعزم ، ولكنها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة ، فلبث حيث هو جامدا ، ثم سألها :

ـــ هل زارك الرسل ؟

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة : نعم .

فجال ببصره فى الحجرة حتى استقر على الصندوق العاجى وقال :

ـ لقد أذنت لهم أن يوصلوا اليك هذا الصندوق !

فقالت باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء : شكرا لك ..

فارتاح فؤاده وقال : وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى ..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدل على الحيرة ، فقال أحمس برقة :

ـ قال الرسل ان هذا العقد عزيز لديك ..

فهزت رأسها بعنف وكأنها تنفى عن نفسها تهمة وقالت :

ـ كنت أكثر من لبسه حقا لأن ساحرة القصر جعلته تعويذة تقى الضر والسوء ...

ففطن الى تهربها ولكنه لم ييأس وقال :

ـ ظننت أن ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية .

فتضرج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب :

ـ لا أذكر اليوم نزوة الأمس ، ويجمل بك أن تحدثنى كما ينبغى لعدو أن يحدث أسيرة .

ورأى وجهها قاسيا جامدا فتجرع الخيبة مرة أخرى ، ولكنه أراد أن يكتم عواطفه فقال :

ـ ألم تعلمى بأنا نضم نساء أعدائنا الى حريم قصورنا ؟

فقالت بحدة : الا مثلى ...

ـ هل تعودين الى التهديد بالصوم ؟

ـ لا حاجة لى به بعد الآن ...

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهكما :

ـ فكيف تدافعين عن نفسك ؟

فأرته فى كفها سلاحا صغيرا لايزيد طوله عن ظفر ، وقالت باطمئنان :

ـ انظر هذا خنجر مسموم ، اذا خدشت به جلدى سرى سمه فى

دمي فقضى على فى لحظات ، دسه الى الرسول فى غفلة من رقبائك ، فعلمت أن أبى يضع بين يدى ما أقضى به على نفسى اذا مسنى الضيم أو تحرش بى انسان .

فغضب أحمس وعبس وجهه وقال :

ــ أهذا هو سر الصندوق ؟ ... سحقا لمن يطمئن الى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة . ان الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم ، ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك فقد دس اليك هذا الخنجر لتقضى به على ...

فهزت رأسها كالساخرة وقالت :

ــ أنت لا تفهم أبوفيس . انه يأبى الا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة ، أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه كما تعود أن يقضى على أعدائه .

فضرب أحمس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد :

ــ لماذا كل هذا العناء ؟ .. فما أزهدنى فى جارية مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد . لقد توهمنك فيما مضى شيئا ليس فيه من حقيقتك شيء ، فسحقا للأوهام جميعا ...

وتحول الملك عنها وغادر المخدع ، وفى الخارج دعا كبير حراسها وقال له :

ــ لتنقل الأسيرة الى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة ...

وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهر الوجه ، وعاد فى عجلته الى المعسكر ...

# ٢٢

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب . وفى فجر اليوم الثانى زحف الجيش بجموعه الجرارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس فى يومين، ولم يظهر حولها أثر للعدو فدخلتها الطلائع فى سلام وتبعها الجيش على الأثر . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة . وزفت البشرى الى الملك أحمس أن بانوبوليس فى أيد مصرية ، فصاح أحمس :

ــ لقد أجلى الرعاة عن مملكة طيبة .

فقال حور : وسيجلون عن مصر قريبا .

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوا ظافرا على أنغام الموسيقى الحماسية ، ونفخ فى الأبواق اعلانا للنصر ، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ، وانتشر الجنود فى الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون . وشمل المدينة فرح جنونى خفق فى كل صدر وتردد مع كل نفس . وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت فى ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان ، وقال الملك لرجاله :

ــ غدا نخترق حدود المملكة الشمالية ونرفع على أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ نيف ومائة عام .

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلا ...

ولكن فى أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء ، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها ، فقال أحد رجالها انهم رسل الملك أبوفيس الى أحمس . فمضى بهم الجنود الى المدينة ، وعلم أحمس بأمر الرسل فذهب الى قصر حاكم المدينة ، ودعا اليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب ، وجلس على كرسى الحاكم يحيط به قواده

ومن حولهم الحرس فى ثيـابهم الفخيمة . وأذن للرسل بالدخول ، وكان المصريون لا يدرون ما يحمـله الرسل هـذه المرة فانتظروا مشوقين . وجاء رسل ملك الرعاة ، وكانوا خليطا من القواد والحجاب فى الثياب العسكرية والمدنية تسبقهم لحاهم المسترسلة ، ولم يكن يبدو على وجوههم آى التحدى والغلظة كما توقع أحمس ، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعا فى اجلال واحترام حتى كاد الملك يعلن دهشته ، وقال كبيرهم :

ــ حياك الرب يا ملك طيبة ، نحن رسل فرعون مصر السـفلى والوسطى اليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدل على شيء مما يثور فى نفسـه ، وقال بهدوء :

ــ حياكم الرب يا رسل أبوفيس ، ماذا تريدون ؟

وبدا على الرسل الاسـتياء لاغفال الملك ألقاب مليكهم ، ولكن زعيمهم قال :

ــ أيها الملك نحن رجال حرب ، فى ميدانها نشـأنا وعلى سنتها نعيش ، شجعان بواسل كما بلوتمونا ، نعجب بالبطل وان كان لنـا عدوا ، وننزل عند حكم السيف وان كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك واسـترددت عرش مملكتك فحق لك ملكها كما حق علينـا تسليمها ، فهى مملكتك وأنت مليكها . وان فرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحا شريفا يحترم الحقوق ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

وأصغى الملك الى الرسل فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، ثم نظر الى لسان القوم وسأله متعجبا :

ــ أجئتم حقا تنشدون سلاما ؟

فقال الرجل :

ــ نعم أيها الملك .

فقال أحمس بصوت يدل على العزم والحزم :

ـ انى أرفض هذا السلام .

ـ ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟

فقال أحمس : يا قوم أبوفيس .. لأول مرة تخاطبون مصريا باحترام ، ولأول مرة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات العبودية . أتعلمون لماذا ؟ لأنكم غلبتم على أمركم . فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار اذا غلبتم ، وشاء اذا غلبتم . أتسألوننى لماذا أصر على الحرب ؟.. فاليكم جوابى ، انى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة ، ولكنى عاهدت ربى وقومى على أن أحرر مصر جميعا من نير الظلم والاستبداد ، وأن أعيد لها حريتها ومجدها . فاذا أراد الذى بعثك السلام حقا ، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه الى صحارى الشمال .

فسأله الرسول بصوت غليظ : أهذه هى الكلمة الأخيرة ؟

فقال أحمس بثقة وقوة : هى ما افتتحنا به الكفاح وآخر ما نختتمه به .

فقام الرسل واقفين ، وقال رئيسهم : ما دمت تريد الحرب فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم حتى يقضى الرب فيها بمشيئته .

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

## ٢٣

ولبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين ، ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبوفيس . فتقدمت جماعات قوية شمال المدينة ، والتحمت بقوات صغيرة للعدو فمزقت شملها ، ومهدت السبيل للجيش المعسكر فى بانوبوليس . فزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا من قبل فى عدده أو عدده ، وأقلع أسطول

أحمس ابانا الجبار بسفنه المظفرة . وفى طريق الزحف أبلغت العيون الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر . ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة ، ولكنه سأل الحاجب حور قائلا :

— ترى هل ما يزال لدى أبوفيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟

فقال حور : ما من شك يا مولاى فى أن أبوفيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، ولو كان لديه قوة منهم تستطيع أن تفصل فى هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى الى السلام ، على أن الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات ، فقدوا الثقة والأمل ..

واستمر تقدم الجيش حتى دنا من معسكر عدوه ، ولاحت نذر المعركة فى الأفق ، وتأهبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك . وصاح أحمس فى القواد قائلا :

— سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام ونيف ، فلنضرب ضربة هائلة تضع حدا لآلام الملايين من اخواننا المستعبدين ، ولنقدم بقلوب شديدة البأس ، فقد حبانا الرب بالعدد والأمل ، وخذل عدونا بالانقراض واليأس . وانى لعلى رأسكم كما كان سيكننرع وكما كان كاموس .

وأمر الملك طلائعه بالهجوم فانقضت كالنسور الكاسرة ، وتحفز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو ، فشاهد قوة من العجلات تقدر بمائتى عجلة ترد عليها الهجوم محاولة الاحداق بها . وكان الملك شديد الرغبة فى القضاء على عجلات العدو ، فهاجم على رأس فرقة العجلات وانقض على العدو من جميع الجهات . وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوات تفوقهم أضعافا ، فقذف أبو فيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيد عجلاته المحدودة . ودارت معركة شديدة ولكن الرعاة لم تنفعهم شجاعتهم وقضى على قوتهم الراكبة ..

وبات الجيش ليلته .. وكان أحمس لا يدرى أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيئسا أم يفر بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل فى هيراكونبوليس . ووضح الأمر فى الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها والقسى والرماح فى أيديها ، ورآهم حور فقال :

ـ الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاى ، ويتعرض أبوفيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرض له مليكنا سيكننرع فى جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام .

فانشرح صدر الملك ، وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجو أمامها سهاما طائرة ، فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهرها ويطاردون من يتفرق من العدو فيقتلون ويأسرون . وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحمس أن يفلت أبوفيس من يده فهاجم أفروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطئانها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود . ثم وافته العيون بأن أبوفيس فارق المدينة مع قوات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس . وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين ، وقال حور للملك :

ـ لن تجد المقاومة فتيلا بعد اليوم ، ولعل أبوفيس يجد الآن فى طلب هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا ، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهليها عن كل شىء ..

## ٢٤

وتقدم الجيش فى زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرا للعـدو ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدقون أن الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذل قرنين من الزمان ، وأن الذى يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحمس الرعاة قد فروا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم ؛ وسمع فى كل مكان طرقه أن أبوفيس مجد فى الهرب بجيشه وقومه الى الشـمال . وهكذا استرد الملك فى شهر من الزمان هبسيل ، وليكوبوليس ، وكوسى ، ثم بلغ أخيرا هرموبوليس ، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس وجنوده ، لأن هرموبوليس مسقط رأس الأم المقدسة توتيشيرى ، وكانت ولايتها قبل عهد الاحتلال فى بيتها العتيـد . فاحتفل أحمس بتحـريرها ، واشترك فى الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعا . ثم كتب الملك الى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس ، ويضمنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه ، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر فدخل تتنوى وسينوبوليس وهبنن ثم ارسنوى ، وانحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة غير عابىء بمشاق السفر وطول الطريق . وكان أحمس فى أثناء ذلك يحطم الأغلال التى يرسف فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبير حيـاة جديدة ، حتى قال له حور يوما :

ـ ان عظمتك الحربية يا مولاى لا يضارعها شىء فى الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكتـك الادارية ، لقد غيرت معـالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة ، ورسمت السبل التى ينبغى إنتهاجها

والسنن التى يجب اتباعها ، ووليت الحكام الوطنيين، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى ، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاما مصريين وجنودا مصريين وقضاة مصريين ، فارتفعت الرءوس المنكسة ، ولم يعد الرجل يعيا بسمرته ويعير بها .. بل صارت موئله ومفخرته .. ألا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكننرع ...

كان الملك يعمل مخلصا مجاهدا لا يعرف اليأس ولا التعب ، وكانت غايته التى لا يتحـول عنها أن يرد الى قومه الذين اهتصرهم الذل والجوع والفقر والجهل ، العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينج على كده وانهماكه من همومه الخاصة ، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء ، وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه : « لقد خدعت ... وما هى الا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ، ولكنه وجد روحه تسرى بالرغم منه الى تلك السفينة التى يعابثها الموج فى مؤخرة أسطوله ...

## ٢٥

واطرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة ، وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة ، فظن أحمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة فى سلام ، وعلم أن أبوفيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى ؛ فدخل أحمس طيبة الشمال فى حفل شعبى لم يشهد له مثيلا من قبل ، واستقبله الأهلون استقبالا حماسيا مهيبا ، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح . ومكث الملك فى منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرام الثلاثة وصلى فى معبـد أبى الهول ، وقدم القرابين فلم يكن سرور يعـادل

سرورهم بفتح منف الا استرداد طيبة ، وكان أحمس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف ، فقال له القائد محب :

ـــ لن يتعرضوا مختارين لبأس عجلاتنا بعد مابلونا فى هيراكونبوليس وافروديتوبوليس .

وقال الحاجب حور بثقة :

ـــ ان السفن لا تفتأ تأتى الينا محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب ، وليس أمام أبوفيس الا الاهتمام بأسوار هواريس .

وتشاوروا جميعا فى الوجهة التى يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ديب :

ـــ لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس ، فينبغى أن نقصد اليه بقواتنا كاملة .

على أن أحمس كان شديد الحذر ، فأرسل جيشا صغيرا الى الغرب عن طريق لتوبوليس ، وسير آخر شمالا فى اتجاه اتريبس ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون . وانطوت الأيام وهم يضربون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة ، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فربيتص وضربوا فى الطريق المؤدى الى هواريس ، وكانت أخبار أبوفيس تترامى اليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات الى هواريس يسوقون آلافا من البائسين . وقد أحدثت هذه الأخبار فى نفس الملك حزنا شديدا ، ورق لحال أولئك الأسرى المستذلين الذين سقطوا فى قبضة الرعاة القاسية ..

وأخيرا لاحت فى الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية ، فصاح أحمس :

ـــ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر .

فقال له حور وهو ينظر الى الحصن بعينيه الضعيفتين :

ـــ حطم أبوابه يا مولاى يخلص لك وجه مصر الجميل ...

# ٢٦

وكانت هواريس تقع شرقى فرع النيل ، ويمتد سورها شرقا مسافة يقطع دونها البصر . وكان كثير من الأهلين يعرفون المدينة المحصنة ومنهم من عملوا داخلها أو فى أسـوارها ، فقالوا لمليكهم انه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرة ، يليها خندق محيط يجرى فيه ماء النيل، وأن بالمدينة حقولا شاسعة تكفى حاجة أهليها جميعا ، وجلهم جنود فيما عدا المزارعين المصريين . وتسقى المدينة جـداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربى وفى حمايته ، وتتجه شرقا نحو المدينة .

وقد وقف أحمس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقلبون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية ، بدت الجنود فى ذراها كالأقزام . وضرب الجيش خيامه ، وامتدت صفوف الجند بحذاء السور الجنوبى، وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى بعيدا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار . وكان أحمس يستمع الى أقوال الأهلين عن الحصن، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه وعقله لاينى عن التفكير. وفى أثناء ذلك سير قوات راكبة ومشاة الى القرى المحيطة بالمدينة ، فاستولت عليها دون عناء ، وأضحى حصـاره للحصن كاملا فى زمن يسير ؛ ولكنه كان ورجاله يعلمون أن الحصـار عقيم ، وأن المدينة مستغنية بنفسها عما عداها ، وأن الحصار لو امتد أعواما لن يؤثر فيها شيئا ؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فى غير أمل، وأهوال الجو وتقلباته . وفيما كان يجول حـول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله الى خيمته ليشاورهم فى الأمر ، وقال لهم :

ــ أشيروا على ؛ فانى أرى الحصار ضياعا للعمر وتبديدا للقوى ، وأرى الهجوم ضربا من العبث وانتحارا صريحا . ولعل العدو يتمنى أن نكر عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم فى خنـادقه . . . فما الرأى ؟ .

فقال القائد ديب : الرأى يا مولاى أن نحاصر الحصن بجـزء من قواتنا ، ونعتبر الحــرب منتهية عند ذاك ؛ ثم تعلن استقلال الوادى وتباشر واجبك كفرعون مصر المتحدة .

ولكن حور اعترض على الفكرة قائلا : وكيف تترك أبوفيس آمنا يدرب رجاله ويجدد عجلاته ليكر علينا فيما بعد ؟

فقال القائد محب بحماسة : لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا ، والكفاح بذل وفداء ، فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبــة ؟

فقال القائد ديب : نحن لانضن بنفوسنا ، ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء ، تهلكة لجنودنا بلا ثمن ..

وكان الملك صامتا متفكرا ، فقال وهو يشير الى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ــ ان هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع ، ولكنها قد تظمأ ..

فنظر الرجال الى النهر وبدت على وجوههم الدهشة ، وقال حور بذهول : كيف تظمأ هواريس يا مولاى ؟

فقال أحمس بهدوء : بأن نحول عنها مياه النيل ..

فنظر الرجال مرة أخرى الى النيل وهم لايصدقون أنه يمكن تحويل هذا النهر العظيم عن مجراه ، وتساءل حور :

ــ هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟

فقال أحمس :

ــ لا يعوزنا المهندسون ولا العمال ..

ــ وكم يقتضينا من الوقت يا مولاى ؟

ــ عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام ، ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة . ينبغى أن يتحول النيل شمال فربتتس الى مجرى جديد يتجه غربا نحو مندس ، كى يختار أبوفيس بين الموت جــوعا وظمأ أو الخــروج لقتالنا . وســيغفر لى شعبى أنى عرضت من فى

هواريس من المصريين للخطر والهلاك ، كما غفر لى أنى فعلت ذلك ببعض نساء طيبة ..

# ٢٧

وتهيأ أحمس للعمل العظيم فاستدعى مهندسى طيبة المشهورين ، وعرض عليهم فكرته فتوفروا على دراستها باهتمام وشغف ، ثم قالوا للملك ان فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدهم بآلاف العمال . وعلم أحمس أن مشروعه لن يتحقق قبل مضى عامين فلم يركن الى اليأس ، ولكنه بعث بالرسل الى البلدان يحثون على التطوع فى العمل العظيم المنوط تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه. وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتى اجتمع منهم عدد يكفى للبدء فى العمل ، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسا وضربه فى الأرض معلنا ابتداء العمل ، فتبعته السواعد المفتولة التى تكد على سجع الأناشيد والأغانى .

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل ، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليومى تحت اشراف الضباط والقواد ، أما الملك فكان يزجى فراغه بالخروج الى الصحراء الشرقية طلبا للصيد والطراد والسباق ، وفرارا من نوازع قلبه ونزوات هواه . وفى فترة الانتظار هذه حمل اليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى قالت فيها :

« مولاى بن آمون ، فرعون مصر العليا والسفلى ، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز . ان دابور الصغيرة اليوم جنة من جنات السعادة والأفراح بفضل ما حمله اليها رسلك من أنباء النصر المبين الذى فتح به الرب عليك ، وان انتظارنا اليوم فى دابور غير انتظارنا بالأمس لأنه محفوف بالعزاء وأدنى الى الرجاء والأمل ، وما أسعدنا جميعا أن نعلم

أن مصر حررت من الهوان والعبودية ، وأن عدوها ومذلها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر خانعا القضاء الذى تقضى به عليه ..

وقد شاء الرب القدير أن يحبوك ــ أنت الذى أذللت عدوه ، وأعليت كلمته ــ بعطفه ورحمته ، فرزقك بغلام نورا لعينيك ووليا لعهدك ، دعوته أمنحتب تبركا بالرب المعبود ، وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجده وجد أبيه من قبل ، وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولى عهد مملكة عظيمة متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب .. » .

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ودرت أضلعة الحنان ، وفرح فرحا عظيما أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت ، وآذن رجاله وجيشه بمولد ولى عهده أمنحتب فكان يوما مشهودا .

## ٢٨

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنها حافلة بجلائل الأعمال التى اشتركت فى انجازها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم ؛ وكانوا جميعا لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم الى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى . ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة من ناحية الحصن وعلى مقدمها يخفق علم أبيض ، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب ، فسألوهم عن وجهتهم فقال كبيرهم انهم رسل الملك أبوفيس الى الملك أحمس . وطير الحراس النبأ الى الملك فعقد الملك مجلسا من حاشيته وقواده فى سرادقه ، وأمر بادخال الرسل اليه . وجاء الرجال يسيرون فى تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر

وبدوا كأنهم من غير قوم أبوفيس ، وانحنــوا بين يدى الملك وحياه كبيرهم قائلا :

ــ حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس قائلا :

ــ وحياكم يا رسل أبوفيس ... ماذا يريد ملككم ؟

فقال الرسول :

ــ أيها الملك ، ان رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنا فيهما السادة المعبودين ، ثم قضى علينا بالهزيمة فغلبنا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا . ونحن أيها الملك رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة كما قدرنا على جنى ثمار النصر ..

فقال أحمس غاضبا : أرى أنكم أدركتم مايعنيه هذا المجرى الجديد الذى يحفره قومى فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم وقال : كلا أيها الملك ، نحن لا نستعطف أحدا ولكنا نقر بالهزيمة . وقد أرسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء : فاما الحرب الى النهاية ، وفى هذه الحال لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا ، ولكننا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك فى ثلثمــائة ألف مقاتل ما منهم الا كاره للحياة متعطش للانتقام ..

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثم استدرك قائلا : واما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ونخلى هواريس ، ونولى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم تحكمونها كما تشاءون ؛ وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان ..

وسكت الرجل فعلم الملك أنه ينتظر جــوابه ، ولم يكن الجواب

حاضرا ولا مما تسعف فيه البداهة فقال للرسول : هلا انتظرت حتى نقطع برأى ؟ ..

فقال الرسول : كما تشاء أيها الملك، فقد أمهلنى مولاى نهاراليوم.

# ٢٩

واجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم :

ـ أشيروا على برأيكم ..

وكانوا جميعا على رأى بغير تشاور ولا اتفاق، فقال حور : مولاى، لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة ، فمحوت بذلك آثارالهزائم التى ابتلينا بها فىماضينا الأسيف، وقتلت منهم خلقا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين . فلا تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا ، ونوفر على أنفسنا بذلا للنفوس لا يدعو واجب اليه ، ما دام عـدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، وسيحرر وطننا الى الأبد ..

وقلب الملك عينيه فى وجوه قومه فوجد منهم حماسة اجماعية لقبول الفكرة ، وقال القائد ديب : لقد أدى كل جنـدى من جنودنا واجبه كاملا ، وان ارتداد أبوفيس الى الصحراء لهو أشد نكالا من ذوق الموت . . .

وقال القـائد محب : ان هدفنا الأسـمى تحرير الوطن من حكم الرعاة واجلاؤهم عنربوعه ، وقد يسر لنا الرب ذلك فلا يجوز أننطيل عهد الذل باختيارنا .

وقال أحمس ابانا : اننا نشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرىبالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة .

واستمع الملك الى رجاله باهتمام شديد وقال : نعم الرأى ما ترون،

ولكنى أرى أن ينتظر رسول أبوفيس فترة أخرى حتى لايظن باسراعنا الى موافقته على الرأى السلمى الضعف أو ملل الكفاح .

وغادر الرجال السفينة وخلا الملك الى نفسه ، وكان على توافر دواعى الابتهاج له كئيبا ضيق الصدر . لقد كلل كفاحه بالفوز المبين وجثا له عدوه الجبار ، ومن الغد يحمل أبوفيس متاعه ويفر الى الصحراء التى جاء منها قومه خاضعا لارادة القضاء الذى لا يرد . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا وابتهاجه ليس كاملا ؟.. لقد حمت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع الى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا اذا رجع الى قصر طيبة وحملت هى الى بطن الصحراء المجهولة ؟ أيتركها تذهب دون أن يتزود منها بنظرة وداع ؟.. وأجاب قلبه أن لا . وحطم أغلال التجلد والكبرياء ، وقام واقفا وفارق المقصورة ، وأخذ زورقا الى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه : « مهما يكن استقبالها فسأجد ما أقوله » . وصعد الى السفينة ومضى الى المخدع فحياه الحراس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر على ديوان ، والظاهر أنها لم تكن تتوقع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والانكار . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهده بها ، ورأى ملامحها كيوم حفرت فى قلبه على ظهر السفينة الفرعونية ، فعض شفته وقال لها : أنعمى صباحا أيتها الأميرة :

فرفعت اليه عينين لم تذهب منهما الدهشة وكأنها لا تدرى بماذا تجيب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادىء وبلهجة لا تدل على شىء :

ــ أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فلاح فى وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول : ألا تسمعين

ما أقول ؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة . انتهى أسرك أيتها الأميرة وأصبحت الحرية حقا لك .

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء فى عينيها ، فقالت بلهفة :

ــ أحق ما تقول ؟.. أحق ما تقول ؟

ــ ان ما أقول حق واقع .

فأضاء وجهها وتورد خداها ، ثم ترددت هنيهة وتساءلت :

ــ ولكن كيف كان ذلك ؟

ــ آه .. انى أقرأ فى عينيك آمالك الطموح ، ألست تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى رد اليك حريتك ؟.. انى أقرأ هذا ، ولكنها هزيمته وآسفاه التى أنهت عبوديتك ..

فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة ، فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تم الاتفاق عليه ، ثم قال : وعما قليل تحملين الى أبيك وترحلين معه الى حيث يرحل ، فمبارك عليك هذا اليوم ..

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضت طرفها ، فسألها أحمس : أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك ؟

فقالت : يجدر بك ألا تشمت بى ، فسنغادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

فقال أحمس بجزع ظاهر : لست أشمت بك أيها الأميرة ، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح : شكرا لك أيها الملك ..

وسمعها لأول مرة تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها وهو يبتسم ابتسامة حزينة : أراك تدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟

فقالت وهى تغض بصرها : لأنك ملك هذا الوادى دون شريك ، أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك ولم يكن يتوقع أن تلين شكيمتها على هذا النحو . ظن أنها تزداد بالهزيمة صلفا فقال بحزن :

ـ أيتها الأميرة ان ذكريات الدنيا سجل اللذة والألم ، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرها ولا يزال أمامكم غد ...

فقال بطمأنينة عجيبة : نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء لمجهولة ، وسنلقى حظنا ببسالة ...

وساد الصمت ، والتقت عيناهما فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ؛ فذكر صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان ، وكأنه يراها لأول مرة بعد ذاك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده وقال بوجد وجزع : عما قليل يفرق بيننا البين ولن تبالى ذلك ، ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة ...

فلاح فى عينيها الحزن وافتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت : أيها الملك انك لا تعرف عنا الا القليل .. نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان .

ـ لم أرد بك الهوان قط .. ولكن غرنى الأمل ادلالا بمنزلة كنت أظنها لى عندك .

فقالت بصوت خافت : أليس من الهوان أن أفتح ذراعى لآسرى وعدو أبى ؟

فقال بمرارة : ان الحب لا يعرف هذا المنطق ...

فلاذت بالصمت ، وكأنها أمنت على قوله فتمتمت بصوت خافت لم يسمعه : « لا ألومن الا نفسى » . ورنت بعينيها رنوا تائها ، وبحركة فجائية مدت يدها الى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام . وتتبعها بعينين لا تصدقان ، ثم ارتمى الى جانبها غير متمالك ، وأحاط عنقها بذراعه وضمها الى صدره بجنون وعنف ، ولم تقاومه البتة ولكنها قالت بحزن : حذار .. لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدج : أمنريدس ... كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟.. بل كيف لا أكتشف سعادتى الا حين وشك زوالها ؟... كلا لن أدعك تذهبين ..

فرنت اليه بعطف واشفاق وقالت له :

ــ وماذا أنت فاعل ؟

ــ سأبقيك الى جانبى ...

ــ ألا تدرى عما يقتضيه بقائى الى جانبك ؟.. هل تجود من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك ؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلا وكأنه يحادث نفسه : لقد استشهد أبى وجدى فى سبيل قومى ووهبتهم حياتى ، فهل يضنون على قلبى بالسعادة ؟

فهزت رأسها أسفا وقالت برقة : أصغ الى يا اسفينيس ، ودعنى أدعك بهذا الاسم العزيز لأنه أول اسم أحبه فى دنياى ، ما من الفراق بد .. سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبهم ، ولا أنا أرضىَ بتقتيل أبى وقومى . فليتحمل كل منا نصيبه من الألم ..

فنظر اليها بذهول وكأنه يأبى أن يكون كل نصيبه من الحب أن يرضى بالفراق وتحمل الألم ، وقال لها برجاء : أمنريدس ، لا تتعجلى اليأس وأشفقى من ذكر الفراق ، فان جريه على لسانك فى يسر يبعث الجنون فى دمى .. أمنريدس .. دعينى أطرق جميع الأبواب حتى باب أبيك ، فماذا يكون لو طلبت اليه يدك ؟..

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهى تمس يده برفق : وا أسفاه يا اسفينيس أنت لا تعى ما تقول ، هل تظن أبى يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربع على عرشها ؟.. أنا أعرف بأبى منك فليس ثمة فائدة ترجى ، وما من وسيلة سوى الصبر ..

وأصغى اليها ذاهلا وكان يتســاءل : « أحق أن التى تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هى الأميرة أمنريدس التى لم تكن الدنيــا تسعها جنونا واســتهتارا وكبرا ؟ » . وبدا لعينيه كل شيء غريبا منكرا فقال بغضب : « ان أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ولا يسمح لانسان بأن يفرق بينه وبين من يحب .. » .

ـ أنت ملك يا مولاى ، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبا. كالشجرة الباســقة أوفى من الحشــائش نصيبا من شعاع الشمس ونسائم الهواء ، وأكثر تعرضا لثورة الريح واقتلاع الزوابع ..

فأن أحمس قائلا : آه ما أشقانى .. لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى ...

فخفضت عينيها وقالت ببساطة وصدق : وطرق الحب قلبى فى ذلك اليوم عينه ، ولكنى لم أكتشفه الا فيما بعد . وتيقظت عواطفى ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلنى اشفاقى على دائى ، وبت ليلتى حائرة مضطربة لا أدرى ماذا أصنع بهذا المولود الجديد .. حتى غمرنى السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيى ..

ـ فى المقصورة ؟ .. أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ أواه ... كيف تكون حياتى بدونك ؟

ـ تكون كحياتى بدونك يا اسفينيس .

فضمها الى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصــاقهما ييئس منهما شبح الفراق الماثل أمامهما . وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير فى ساعة واحدة ، وطرق كل سبيل من الفكر يبغى حلا فاعترضه اليأس والقهر ، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه . وأحس كل منهما أنه آن أن ينفصلا ، ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا فلبثا كشىء واحد ..

# ٣٠

وغادر أحمس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماه ، وكان ينظر الى شيء فى كفه ويتمتم قائلا : « أهذا كل ما تبقى لى من حبى ؟ .. » . وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، أهدتها اليه الأميرة تذكارا واحتفظت بالقلب لنفسها . وركب الملك عجلته ومضى الى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة . وقصد الملك الى السرادق ودعا برسول أبوفيس وقال له : أيها الرسول لقد درسنا بامعان ما عرضته علينا . ولما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم وهو ما رضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنــا للدماء . وسنتبادل الأسرى فى الحال ، ولكننى لن آمر بالكف عن العملحتى يغادر آخر رجل منكم هواريس ، وبذلك تطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادي ..

فأحنىالرسول رأسه وقال : نعم الرأى الذى رأيت أيها الملك ، فان الحرب اذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلا وتذبيحا .

فقال أحمس : والآن سأترككم لتبحثوا معا فى تفاصيل التبــادل والاجلاء .

وقام الملك فقام الجميع وقوفا وانحنوا له اجــلالا ، فحياهم بيده وغادر المكان ..

# ٣١

وفى مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالا ، وكانوا يهتفون لمليكهم مسرورين ويلوحـــون بأيديهم ، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس الى المدينة فى سكون ووجوم .

وفى غداة اليوم الثانى بكر أحمس وحاشيته الى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية ، وكانوا لا يخفـون جذلهم ، تتألق وجوههم بنور الفـرح والابتهاج ، وكان القائد محب يقول :

ــ عما قليل يأتى حجاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلموها الى جلالة الملك ، كما سلمت مفاتيح طيبة الى أبوفيس قبل أحد عشر عاما ..

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا الى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس رصت به مفاتيح هواريس ، فتسلمه الملك وأعطـاه حاجبه الأكبر ، ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا فى سكون وصمت ..

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها فى جنبات الوادى ، فتطلع أصحاب الهضـبة صامتين ، وبرزت أولى جماعات الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمهـا أبوفيس لاستطلاع الطريق المجهول ، وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغـال والحمير وبعضهن يحملن فى الهوادج ، وقد اسـتغرق خروجهن ساعات طـويلة . ثم بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كبيرة تجرها الثيران ، فعلم الناظرون أنه فيس وآل بيته ، وقد خفق فؤاد أحمس لمرآه وقاوم دمعة حرى انتزاعها من حناياه ، وتساءل أترى فى أى مكان هى ؟ وهل تجد

فى البحث عنه كما يجد فى البحث عنها ؟ .. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟ ... وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه ؟ وتابع الركب بناظريه لا يلتفت الى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب ، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيبهم الأفق وابتلعهم الغيب . . .

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول :

ـ فى هذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس ، ويكلل كفاح طيبة التى لاتعرف اليأس بالفوز المبين .

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتل أسوارها المنيعة ، وبات فيها حتى فجر الغداة ، وزحف أحمس بفرقة العجلات شرقا تتقدمه طلائعه فدخل تنيس ودفنى، وهناك جاءته العيون وهنأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر . فعاد الملك الى هواريس ، وأمر أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون ، وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كل فرقة ضباطها وقائدها ، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته ، ثم جثوا جميعا فى خشوع وصلوا للرب صلاة حارة . وختم أحمس صلاته بأن دعا ربه قائلا :

ـ أحمدك وأشكر لك أيها الرب المعبود ، فقد وصلت جناحى وثبت قلبى ، وأكرمتنى ببلوغ الغاية التى استشهد فى سبيلها جدى وأبى ، فاللهم ألهمنى الصواب وأيدنى بالعزم والأمل لأضمد جراح شعبى ، وأجعله خير عابد لخير معبود ..

ثم دعا أحمس رجاله الى الاجتماع به فلبوا سراعا ، فقال لهم :

ـ اليوم تنتهى الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا ، ولكن الكفاح لم ينته أبدا . وصدقونى أن السلام أكبر من الحرب حاجة الى يقظة النفوس وتوثب العزائم ، فأعيرونى قلوبكم لنبعث مصر بعثا جديدا .

ونظر الملك فى وجوه رجاله قليلا ثم استطرد : وقد رأيت أن أبدأ كفاح السلام باختيار أعوانى المخلصين، لذلك أعهد الى حور بالوزارة .

وقام حور الى مولاه وجثا أمامه وقبل يده ، فقال الملك : وأرى أن سنب خير خلف لحور فى قصرى . أما ديب فهو رئيس الحرس الفرعونى .

ونظر الملك الى محب وقال : وأنت يا محب قائد جيشى العام .

ثم التفت الى أحمس ابانا وقال : وأما أنت فقائد الأسطول ، وسترد اليك ضياع أبيك القائد الباسل بيبى .

ووجه الملك كلامه الى الجميع قائلا : والآن عودوا الى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدى كل واجبه .

وتساءل حور قلقا : ألا يعود فرعون على رأس جيشه الى طيبة ؟

فقال أحمس وهو يهم قائما : بل ستقلع بى سفينتى الى دابور لأزف بشرى النصر الى أسرتى ثم أعود معها الى طيبة ؛ فندخلها جميعا كما تركناها جميعا ..

## ٣٢

وأقلعت السفينة الفرعونية فى حراسة ثلاث سفن حربية ، وكان أحمس ملازما المقصورة ينظر الى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى .. واستغرقت الرحلة أياما ثم لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة ، ورسا الأسطول على شاطئها عند الأصيل ، وغادره الملك وحرسه فى ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع اليهم جمع من النوبيين ، وساروا بين أيديهم الى بيت الحاكم رؤوم . وذاع فى المدينة أن رسولا فرعونيا كبيرا جاء يزور أسرة سيكننرع ، وسبق الخبر الملك الى بيت الحاكم ، فلما شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية فى فناء القصر ينتظرون . وطلع الملك عليهم فعقدت الدهشة والفرح ألسنتهم ، وجثا رؤوم على ركبتيه ، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا اليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى فقبل

خديها وجبينها . ونظر فرأى أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعها فضمها الى صدره وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان . وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها فدنا منها وقبل يديها وجبينها . وأخيرا رأى توتيشيرى .. أخيرة القوم وأعزهم ، توتيشيرى التى كللها المشيب وأذبل خديها الكبر ، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

ــ أماه وأم الجميع . . .

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهى ترفع اليه عينيها :

ــ دعنى أنظر الى صورة سيكننرع الحية .

فقال أحمس : اخترت يا أماه أن أكون الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم ، فاعلمى يا أماه أن جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبوفيس وقومه وطردهم الى الصحراء التى جاءوا منها وحرر مصر جميعا من عبوديتهم ، فحق وعد آمون وطابت نفس سيكننرع وكاموس ...

فتهلل وجه توتيشيرى وومضت عيناها الكليلتان وقالت بفرح :

ــ اليوم يفك أسرنا ونعود الى طيبة فأجدها كعهدى بها مدينة المجد والسيادة ، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيت المجيدة .

وجاءت وصيفة الملكة السيدة راى تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فانحنت للملك وقالت : مولاى قبل طفلك الصغير وولى عهدك أمنحتب ...

فلانت نظرة عينيه ودرت حناياه حنانا دفاقا ، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به شفتاه المشوقتان ، وابتسم أمنحتب الى أبيه وعابثه بيديه الصغيرتين ...

ثم دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة والطمأنينة ، فخلصوا الى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم ...

## ٢٣

وحمل الجنود متاع الأسرة الى السفينة الفرعونية ، ثم انتقل الملك وآله اليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالى دابور جميعا . وقبل أن ترفع السفينة مراسيها دعا أحمس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله : « أيها الحاكم الأمين أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة ، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا اذ لا وطن لنا ، ومأوانا حين عز النصير ومات الصديق ، ومدخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعى الى الكفاح . فلا تنس صنيعها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرمها شيئا تتمناه لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها .. » .

ثم أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشق طريقها نحو الشمال تحمل قوما تهفو نفوسهم الى مصر وأهلها .. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج اليها رجال الجنوب فى سفينة الحاكم شاو ، وأحاطت بها زوارق الأهالى يهتفون ويغنون ، وصعد الى سطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسيين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا الى نصائحه . ثم انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطئان وتطوف بها القوارب ويصعد الى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان ، وما زالت السفينة تجد السير حتى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح فى الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد ، وهرعت الأسرة من المخادع الى مقدم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق ، ويتجلى فى نظراتهم الحنين والوجد ، وتفيض أعينهم بدمع الشكران ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت : « طيبة .. طيبة » . وقالت الملكة أحوتبى بصوت متهدج : « رباه ... ما كنت أتصور أن يقع بصرى مرة أخرى على هذه الأسوار .. » .

وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة فى ريح مؤاتية حتى استطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم على الشاطىء ينتظرون ، فعلم أحمس أن طيبة تزجى أولى تحياتها لمخلصها ، فعاد الى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش وجلسن حـوله . وأدى الجنود التحيـة العسكرية للسفينة الفرعونية ، وصعد الى سطحها رجال طيبة : وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور ، والقائدان محب وأحمس ابانا ، ورئيس الحرس الفرعونى ديب ، وكبير الحجاب سنب ، وحاكم طيبة توتى آمون ، ثم كاهن طاعن فى السن محترق الشعر شيبا يتوكأ على صولجانه ويسير بخطى وئيدة منحنى القامة ، وسجد الرجال جميعا لفرعون وقال له حور : مولاى محرر مصر ومخلص طيبة وقاهر الرعاة ، فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال . ان طيبة جميعا فى الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحمس بن كاموس بن سيكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعا أحر ما جمعت عليه صدرها من التحية والسلام ..

فابتسم أحمس وقال : حياكم الرب أيها الرجال المخلصون ، وحيا طيبة المجيدة مبدئى وغايتى ..

وأومأ حور الى الكاهن الجليل وقال : مولاى .. ائذن لى أن أقدم الى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون .

فنظر اليه أحمس باهتمام ، ومد له يده مبتسما وقال برقة :

— يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر ..

فلثم الكاهن يده وقال : مولاى فرعون مصر وابن آمون ، مجدد حياة مصر ومحى سير الأعظمين من ملوكها . لقد كنت يا مولاى آليت على نفسى أن لا أبرح حجرتى ما دام فى مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلوا طيبة وقتلوا سيدها المجيد ، وأهملت نفسى فغزر شعر رأسى وجسدى ، وقنعت من الدنيا بلقمات أتبلغ بها وجرعات من الماء القراح كى أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع ، وما زلت حتى قيض الرب لمصر ابنه أحمس ، فحمل على عـدونا حملة صادقة

ومزق شمله وطرده عن بلادنا ، فعفوت عن نفسي وأطلقت سراحي ، لأستقبل الملك المجيد وأدعو له ..

فابتسم الملك اليه ، واستأذن الكاهن فى السلام على الأسرة فأذن له ، فقصد الى توتيشيرى وسلم عليها ، وعدل الى الملكة أحوتبى وكان من المقربين اليها على عهد سيكننرع ، ثم قبل يد ستكيموس ونيفرتارى ، ثم قال حور لمولاه :

— مولاى . ان طيبة تنتظر مولاها ، والجيش مصطف فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأل أحمس قائلا : وما رجاء كاهننا الأكبر ؟

فقال الكاهن باحترام : أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب الى القصر الفرعونى .

فقال أحمس مبتسما : يا له من رجاء فى تحقيقه الغنم والسعادة ..

## ٢٤

وغادر أحمس السفينة تتبعه الملكات ورجال مملكته ، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول ، فرد الملك تحيتهم . وصعد الى هودج فرعونى جميل ، واعتلت الملكات هوادجهن ، ورفعت الهوادج وتقدمتها فرقة من الحرس الملكى ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس ، وتقدم الموكب الملكى نحو باب طيبة الجنوبى الوسيط ، وكان مزينا بالأعلام والأزهار ، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب ..

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية ، وقد نفخ فى الأبواق حرس الأسوار ، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين . ونظر أحمس فيما حوله فرأى منظرا

عجبا يذهل النفوس الرصينة ، رأى أهل مصر جميعا فى نظرة واحدة ، رأى أجسادا تحجب السبل والجدران والمنازل ، بل رأى أرواحا خالصة من العبادة والحب والحماسة . وضج الجو بالهتاف المتصاعد من القلوب ، وفتن الناس لرؤية الأم المقدسة فى مهابة الشيخوخة وجلال الكبر ، وحفيدها الباسل فى عنفوان القوة والشباب . وشق الركب طريقه كأنما يخوض بحرا لجيا عبابا ، تتعلقه الأنفس والأبصار ، فقطع السبيل الى معبد آمون فى ساعات ..

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون ، ودعوا له طويلا وساروا بين يديه الى بهو الأعمدة ، حيث قدمت القرابين على المذبح . وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردد فى القلوب فترة طويلة ، ثم قال الكاهن الأكبر للملك : مولاى ائذن لى فى الذهاب الى قدس الأقداس لاحضار أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

فأذن له الملك ، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا يسيرا ، ثم ظهر الكاهن الأكبر مرة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، فوضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام واجلال ، وتقدم نوفر آمون حتى وقف أمام احمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

— مولاى ، ان ما أعرض على أنظاركم لهى أنفس مخلفات المملكة المقدسة ، عهد بها الى لاثنى عشر عاما خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبى لتكون فى مأمن من أن تصل اليها يد العدو الجشع . أما التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جثته المحنطة التى اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجل كل جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية ، وأما العرش فهو عرشه المجيد الذى أدى حقه وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية التى آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون الى ذل السلامة . وأما هذا الصندوق الذهبى فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا

مصر المتحدة ، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبوفيس ، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه جميع أهل الوادى ،... هذه يا مولاى ودائع بيبى المقدسة أحمد الرب أن مد فى عمرى حتى رددتها الى أصحابها ، داموا للمجد ودام لهم ...

وتحولت أبصار الجميع الى التابوت الفرعونى ، ثم سجدوا جميعا وفى مقدمتهم الأسرة الفرعونية وصلوا خاشعين ...

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به ، وكان الصمت يشملهم جميعا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم . وأحست توتيشيرى لأول مرة تخاذلا وخورا فاستندت الى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظريها التابوت المحبوب . وعزم حور على أن يرقأ دمع الأم المقدسة ويسكن آلام قلبها فقال لنوفر آمون :

— أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت المقدس فى قدس الأقداس حتى يودع فى مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه ..

فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت الى مثوى الرب المعبود ، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج ، ودنا من أحمس فى اجلال وتوج به رأسه المجعد ، ورأى القوم مافعل الكاهن فهتفوا جميعا « يعيش فرعون مصر » ...

ودعا نوفر آمون الملك والملكات الى زيارة المثوى المقدس فساروا جميعا ، وكانت توتيشيرى ماتزال تتوكأ على ذراع أحمس ، واجتازوا العتبة المقدسة التى تفصل بين الدنيا والآخرة ، وسجدوا للرب المقدس ولثموا الستائر المسدلة على تمثاله ، وصلوا صلاة الشكر والحمد أن هيأ لهم الفوز وردهم الى وطنهم ظافرين ...

وغادر الملك المعبد الى هودجه وكذلك الملكات ، وحمل العرش على عربة كبيرة ، واستأنف الموكب سيره الى القصر بين الجموع الهاتفة الداعية ، المهللة المكبرة ، الملوحة بالأغصان الناثرة الزهور ،

فبلغوا القصر القــديم عند الأصيل ، وكان التأثر قد بلغ من نفس توتيشــيرى مبلغا كبيرا فاشــتد خفقان قلبها واضطربت أنفاسها ، فحملت فى هودجها الى جناحها الملكى ، ولحقت بها الملكات والملك ، وجلسوا بين يديها قلقين ، ولكنها استعادت هدوءها وعادت بقوة ارادتها وايمانها فاســتوت جالسة ونظرت فى الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت ضعيف :

ــ معذرة يا أبنائى ، لقد خاننى قلبى لأول مرة ، ولشد ما احتمل هذا القلب ولشد ما صبر ، فدعونى اقبلكم جميعا ، ففى مثل سنى يعجل بلوغ الأمل بالنهاية ...

## ٣٥

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لا يعرف النوم الى أجفانها سبيلا ، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل فى طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس فى ميادينها ينشدون ويهتفون ، وتسجع ديارها بالأغانى والألحان . فى تلك الليلة لم ينم أحمس على ما به من تعب ونصب ، ونبــا به الفراش فخرج الى الشرفة المطلة على حديقة القصر الفيحاء، وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت ، وساحت روحه فى الظلام الجاثم ، وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنو واشــفاق ، ينظر اليها بين الفينة والفينة كأنما يستمد منها أفكاره وأحلامه ..

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشــابة نيفرتارى وكان الفرح ينفى الكرى عن عينيها ، فظنت أن زوجها فى مثل سرورها ، فجلست الى جانبه جذلة منشرحة الصدر ، وانعطف الملك اليها مبتسما فوقع بصرها على السلسلة فى كفه فتناولتها بدهشة وقالت : أهذا عقدٍ ؟.. ما أجمله .. ولكنه مبتور ..

فقال وهو يجمع أشتات فكره :
ــ نعم .. فقد قلبه .
ــ واأسفاه .. وأين فقد ؟
فقال : لا أدرى الا أنه ضاع على غير ارادتى ..
فنظرت اليه بمودة وسألته : أكنت تنوى أن تهديه الى ؟
فقال : انى أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل ..
فقالت : فكيف تأسف عليه اذن ؟
فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيا هادئا :
ــ انه يذكرنى بأيام الكفاح الأولى ، حين خرجت أطلب طيبة متخفيا فى ثياب التجار داعيا نفسى اسفينيس ، فكان فيما أعرض على الناس للشراء .. فيا للذكريات الجميلة .. نيفرتارى ، أود أن تدعونى اسفينيس ، فهو اسم أحبه وأحب عهده وأحب من يحبه ..
وأدار الملك وجهه ليخفى ما ارتسم عليه من التأثر والحنين ، فابتسمت الملكة بسرور ، ولاحت منها نظرة الى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء ، فقالت وهى تشير بيدها « انظر الى هذا المشعل .. » .
فألقى أحمس بصره الى حيث تشير ، ثم قال :
ــ هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة ..
وكأن صاحب القارب تعمد أن يدنو من حديقة القصر ليسمع أهله القادمين جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعا ، فرفع عقيرته متغنيا فى سكون الليل يردد سجعه مزمار ..
« كم رقدت فى غرفتى منذ سنين »
« أعانى ألم داء وجيع »
« فعادنى الأهل والجيران »
« وزارنى العرافون والأطباء »
« فأعيا الداء أطبائى وجيرانى »

« حتى جئت أنت يا حبيبى »
« فبرع سحرك الطب والرقى »
« لأنك أنت تعرف سر دائى »

وكان صوته جميلا يأخذ بالسمع ، فأنصت أحمس ونيفرتارى ، وكانت الملكة ترنو الى ضوء المشعل بعطف وحنان ، وكان الملك ينظر الى ما بين قدميه بعينين شبه مغمضتين ، تنوح فى قلبه الذكريات ..

# للمؤلف

| | | الطبعة الأولى | الطبعة الثانية |
|---|---|---|---|
| مصر القديمة | (مترجم عن الإنجليزية) | ١٩٣٢ | |
| همس الجنون | مجموعة أقاصيص | ١٩٣٨ | |
| عبث الأقدار | قصة تاريخية | ١٩٣٩ | |
| رادوبيس | « « | ١٩٤٣ | ١٩٤٦ |
| كفاح طيبة | « « | ١٩٤٤ | ١٩٤٧ |
| القاهرة الجديدة (فضيحة فى القاهرة) | | ١٩٤٥ | ١٩٥٣ |
| خان الخليلى | | ١٩٤٦ | ١٩٥٤ |
| زقاق المدق | | ١٩٤٧ | ١٩٥٥ |
| السراب | | ١٩٤٨ | |
| بداية ونهاية | | ١٩٤٩ | ١٩٥٦ |
| بين القصرين | رواية من ثلاثة أجزاء | ١٩٥٦ | |
| قصر الشوق | | ١٩٥٧ | |
| السكرية | | ١٩٥٧ | |



دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقي الفجالة

